المقامة بجامع الصحابي الجليل

عتبة بن غزوان

رضي الله عنه

محافظة الدمام / حي الاتصالات

متون الدورة العلمية الرابعة عشرة

١٤٣٧هـ

في الفترة

١٥/١٠/١٤٣٧هـ - ٢٤/١٠/١٤٣٧هـ

تنقل فعاليات الدورة مباشرة عبر إذاعة جامع عتبة بن غزوان http://utbah.athaar.org/live

كما تنقل عبر إذاعة موقع ميراث الأنبياء www.miraath.net

بسم الله الرحمن الرحيم

وبِه نستعين..

الحمدُ لله الذي علَّم القُرآن، وخَلَق الإنسان، ثمَّ علَّمه البيان، والصَّلاة والسَّلام على عبده ورسوله محمَّد، أعلم الخَلْق بالله ودِينه وشَرعه، وأنصحهم للنَّاس وأنفعهم، وعلى آله وأصحابه أُولي الفضائل والكرامات، ومَن تبعهم إلى يَوم الحشر والجزاء.

أمَّا بعدُ:

فيَا طالب العِلمِ – سدَّدك الله وقوَّاك –:

اِعلَم أنَّ من أعظمِ العبادات، وأجلِّ الطَّاعات، وأفضل القُرُبات التي ترضِي الله تعالى، وتُقرِّب من الجنَّة، وتباعِد عن النَّار– طلبَ العِلمِ الشَّرعي، والتَّفقُّه فيه، ودراسته وتذاكُره؛ إذْ قال النبيُّ ﷺ : **«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»** رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

ففي العِلمِ الشَّرعي رِفعةٌ للعبد في الدُّنيا والآخرة؛ إذْ قال الله سبحانه: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ [المجادلة: ١١].

وفي العِلمِ الشَّرعي خشيةٌ الله – جلَّ وعلَا –؛ إذ قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

جامع عتبة بن عروان رضي الله عنه

وفي العِلمِ الشَّرعي تسهيلُ طريق الجَنَّة؛ إذ قال النبيُّ ﷺ : **«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ»** رواه مسلمٌ.

وفي العِلمِ الشَّرعي تكثيرُ الأجور؛ إذ قال النبيُّ ﷺ : **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»** رواه مسلمٌ.

وثبت عنه ﷺ أنَّه قال: **«وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ»** رواه أبو داود.

وفي العِلمِ الشَّرعي استمرارُ الأجور بعد الممات؛ إذ قال النبيُّ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» رواه مسلمٌ.

وبالعِلمِ الشَّرعي يكون العبد وارثًا للأنبياء – عليهم الصَّلاة والسَّلام – ؛ فقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**» رواه أبو داود والترمذي.

وثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه : «**أَنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ المَدِينَةِ، فَوَقَفَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «يَا أَهْلَ السُّوقِ، مَا أَعْجَزَكُمْ» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: «ذَاكَ مِيرَاثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقْسَمُ، وَأَنْتُمْ هَاهُنَا لَا تَذْهَبُونَ فَتَأْخُذُونَ نَصِيبَكُمْ مِنْهُ» قَالُوا: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: «فِي المَسْجِدِ» ؛ فَخَرَجُوا سِرَاعًا إِلَى المَسْجِدِ، وَوَقَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُمْ حَتَّى رَجَعُوا، فَقَالَ لَهُمْ: «مَا لَكُمْ؟» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! فَقَدْ أَتَيْنَا المَسْجِدَ، فَدَخَلْنَا، فَلَمْ نَرَ فِيهِ شَيْئًا يُقْسَمُ. فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: «أَمَا رَأَيْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدًا؟» قَالُوا: بَلَى، رَأَيْنَا قَوْمًا يُصَلُّونَ، وَقَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ الحَلَالَ وَالحَرَامَ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَيْحَكُمْ، فَذَاكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ ﷺ »**».

وبالعِلمِ الشَّرعي تختلفُ منازلِ النَّاس؛ إذ قال الله سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

وثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ**» رواه أبو داود والترمذي.

وكيف لا يكون العِلم الشَّرعي وأهله بهذا الفضل العظيم، وهذه المنزلة الرفيعة، وفي العِلمِ الشَّرعي حفظُ الدِّين، ومعرفةُ الحقِّ من الباطل، والتَّوحيد من الشِّرك، والسُّنَّة من البدعة، والطَّاعة من المعصية، وأهل السُّنَّة من أهل البدعة، فهو نورٌ يسير به العبد إلى ربِّه في عقيدته وعبادته وأخلاقه ومعاملاته على صراطٍ مستقيم.

وإنَّنا نعيشُ في زمانٍ قد قلَّ فيه العلماء الرَّاسخون الأثبات، وكَثُر فيه الجهل بأحكام الشَّريعة، وانتشر حتَّى عمَّ المدن والقرَى والبوادي، وزُهِّد في أهلِه ومجالسه ودروسه وكُتبه.

وإنَّ هذه الدَّورات العِلمية التي أُقيمت – ولا تزال تُقام – في هذا الجامع، جامع الصَّحابي الجليل عُتبَة بن غزوان – رضي الله عنه –، في كلِّ عامٍ، حتَّى وصلنا في هذا العام إلى الدَّورة « الرَّابعة عشرة » ما هي إلَّا بابٌ لتيسير العِلم لِراغبيه، وطريق لرفع الجهل عن طالبيه، وسبيل لحفظ أديان وأوقات الحاضرين.

وبحمد الله قد يُسِّر في هذه الدَّورة للطُّلاب حضورُ أهل العِلمِ والفضل إليهم، فشَكَرَ الله قدومهم، وجزاهم بالخير أين ما كانوا، ورفع درجاتهم، وأعلَى ذِكرهم.

وكذلك يُسِّرت لهم الكُتبُ والمتون العِلمية التي ستُشرح وتُدرس، فطُبعت ووُزِّعت، ويُسِّر لهم أمر السَّكن والمعيشة.

فالجد الجد في طلب العِلمِ وتحصيله، والتَّشمير التَّشمير إلى حِفظه ومذاكرته، وأقبلوا عليه بهمَّةٍ عالية، ورغبةٍ كبيرة، واسألوا ربَّكم الإعانة والقبول.

وفي ختام هذه المقدِّمة عن العِلمِ وفضله وأدبه، أسألُ الله لجميع الحاضرين التَّوفيق والسَّداد، والزِّيادة في العِلمِ والفقه، إنَّه جوادٌ كريم.

أخوكم المشرف على الدَّورات العِلمية وإمام الجامع وخطيبه:

رياض بن عبد الله البرَّاك

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

السعودية – مدينة الدَّمام – حي الاتصالات

١٤٣٧هـ

متن

كَشف الكُربة

فِي وَصف حال أهل الغُربة

تأليف الإمام الحافظ

زَين الدِّين أبو الفَرج عبد الرَّحمَن بن أحمَد بن رجَب الحنبَلِي

(٧٣٦ - ٧٩٥هـ)

رحمه الله تعالى

(شَرح وتَعلِيق)

فضِيلة الشَّيخ الدكتور / محمَّد بن هادِي المدخَلي

حفظه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِّي الْعَظِيمِ

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ الْعَلَّامَةُ الْحَبْرُ الْكَامِلُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ قُدْوَةُ الْأَنَامِ، وَحِيدُ عَصْرِهِ وَفَرِيدُ دَهْرِهِ، سَيِّدُنَا وَشَيْخُنَا أَبُو الْفَرَجِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَيِّدِنَا وَشَيْخِنَا الْإِمَامِ شَهَابِ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيِّ، فَسَحَ اللهُ فِي مُدَّتِهِ، وَنَفَعَ بِهِ:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَكَمَا يَنْبَغِي لِكَرَمِ وَجْهِهِ وَعِزِّ جَلَالِهِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

خَرَّجَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»، وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ».

وَخَرَّجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ بِزِيَادَةٍ فِي آخِرِهِ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ».

وَخَرَّجَهُ أَبُو بَكْرٍ الآجُرِّيُّ، وَعِنْدَهُ: «قِيلَ: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ».

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

وَخَرَّجَهُ غَيْرُهُ، وَعِنْدَهُ: «قَالَ: الَّذِينَ يَفِرُّونَ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتَنِ».

وَخَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ كُثَيِّرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ المُزَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي».

وَخَرَّجَهُ الطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي حَدِيثِهِ: «قِيلَ: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الَّذِينَ يَصْلُحُونَ حِينَ يَفْسَدُ النَّاسُ». وَخَرَّجَهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ بِنَحْوِهِ.

وَخَرَّجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي حَدِيثِهِ: «فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ».

وَخَرَّجَ الْإِمَامُ أَحْمَدَ وَالطَّبَرَانِيُّ مَنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»، قُلْنَا: وَمَا الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي نَاسٍ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ».

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «قِيلَ: وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «الْفَرَّارُونَ بِدِينِهِمْ، يَبْعَثُهُمُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا» يُرِيدُ بِهِ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا قَبْلَ مَبْعَثِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ضَلَالَةٍ عَامَّةٍ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الَّذِي خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ: «إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ».

فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَعَا إِلَى الإِسْلَامِ لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ إِلَّا الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ، وَكَانَ الْمُسْتَجِيبُ لَهُ خَائِفًا مِنْ عَشِيرَتِهِ وَقَبِيلَتِهِ، يُؤْذَى غَايَةَ الْأَذَى، وَيُنَالُ مِنْهُ وَهُوَ صَابِرٌ عَلَى ذَلِكَ فِي اللهِ ﷻ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ ذَاكَ مُسْتَضْعَفِينَ، يُطْرَدُونَ وَيُشَرَّدُونَ كُلَّ مُشَرَّدٍ، وَيَهْرُبُونَ بِدِينِهِمْ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ، كَمَا هَاجَرُوا إِلَى الْحَبَشَةِ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يُعَذَّبُ فِي اللهِ، وَفِيهِمْ مَنْ قُتِلَ، فَكَانَ الدَّاخِلُونَ فِي الْإِسْلَامِ حِينَئِذٍ غُرَبَاء.

ثُمَّ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَعَزَّ، وَصَارَ أَهْلُهُ ظَاهِرِينَ كُلَّ الظُّهُورِ، وَدَخَلَ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، وَأَكْمَلَ اللهُ لَهُمْ الدِّينَ، وَأَتَمَّ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ.

وَتُوُفِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَهْلُ الْإِسْلَامِ عَلَى غَايَةٍ مِنَ الاسْتِقَامَةِ فِي دِينِهِمْ، وَهُمْ مُتَعَاضِدُونَ مُتَنَاصِرُونَ، وَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثُمَّ أَعْمَلَ الشَّيْطَانُ مَكَائِدَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَلْقَى بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، وَأَفْشَى فِيهِمْ فِتْنَةَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَلَمْ تَزَلْ هَاتَانِ الفِتْنَتَانِ تَتَزَايَدَانِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ مَكِيدَةُ الشَّيْطَانِ، وَأَطَاعَهُ أَكْثَرُ الْخَلْقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ فِي طَاعَتِهِ فِي فِتْنَةِ الشُّبُهَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ فِي فِتْنَةِ الشَّهَوَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا، وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوُقُوعِهِ.

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

فَأَمَّا فِتْنَةُ الشُّبُهَاتِ:

فَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى أَزْيَدَ مِنْ سَبْعِينَ فِرْقَةٍ، عَلَى (خِلَافِ)[1] الرِّوَايَاتِ فِي عَدَدِ الزِّيَادَاتِ عَلَى السَّبْعِينَ، وَأَنَّ جَمِيعَ تِلْكَ الْفِرَقِ فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً، وَهِيَ مَنْ كَانَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَصْحَابُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

(١) فِي نسخة أخرى قال: (اختلاف).

وَأَمَّا فِتْنَةُ الشَّهَوَاتِ:

فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ خَزَائِنُ فَارِسَ وَالرُّومِ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟» قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ (تَتَبَاغَضُونَ)[1]».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «وَاللَّهِ! مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَعْنَاهُ أَيْضًا.

وَلَمَّا فُتِحَتْ كُنُوزُ كِسْرَى عَلَى عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بَكَى وَقَالَ: «إِنَّ هَذَا لَمْ يُفْتَحْ عَلَى قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا جُعِلَ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ». أَوْ كَمَا قَالَ.

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَخْشَى عَلَى أُمَّتِهِ هَاتَيْنِ الفِتْنَتَيْنِ كَمَا فِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ»، عَنْ أَبِي بَرْزَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلَّاتِ الْفِتَنِ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَمُضِلَّاتِ الْهَوَى».

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

(١) في نسخة أخرى قال: (تَتَضَاغَنُونَ).

فَلَمَّا دَخَلَ أَكْثَرُ النَّاسِ فِي هَاتَيْنِ الْفِتْنَتَيْنِ أَوْ إِحَدَاهُمَا أَصْبَحُوا مُتَقَاطِعِينَ مُتَبَاغِضِينَ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ مُتَوَاصِلِينَ؛ فَإِنَّ **فِتْنَةَ الشَّهَوَاتِ** عَمَّتْ غَالِبَ الْخَلْقِ فَفُتِنُوا بِالدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا وَصَارَتْ غَايَةَ قَصْدِهِمْ، لَهَا يَطْلُبُونَ، وَبِهَا يَرْضَوْنَ، وَلَهَا يَغْضَبُونَ، وَلَهَا يُوَالُونَ، وَعَلَيْهَا يُعَادُونَ، فَقَطَعُوا لِذَلِكَ أَرْحَامَهُمْ وَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَارْتَكَبُوا مَعَاصِيَ اللهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

وَأَمَّا فِتْنَةُ الشُّبُهَاتِ وَالْأَهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ: فَبِسَبَبِهَا تَفَرَّقَ أَهْلُ الْقِبْلَةِ وَصَارُوا شِيَعًا، وَكَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَصْبَحُوا أَعْدَاءً وَفِرَقًا وَأَحْزَابًا، بَعْدَ أَنْ كَانُوا إِخْوَانًا قُلُوبَهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْ هَذِهِ الْفِرَقِ إِلَّا الْفِرْقَةُ الْوَاحِدَةُ النَّاجِيَةُ، وَهُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

وَهُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ الْغُرَبَاءُ الْمَذْكُورُونَ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: «الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»، «وَهُمُ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ السُّنَّةِ»، «وَهُمُ الَّذِينَ يَفِرُّونَ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتَنِ»، «وَهُمُ النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ»؛ لِأَنَّهُمْ قَلُّوا، فَلَا يُوجَدُ فِي كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا الْوَاحِدُ وَالِاثْنَانِ، وَقَدْ لَا يُوجَدُ فِي بَعْضِ الْقَبَائِلِ مِنْهُمْ أَحَدٌ، كَمَا كَانَ الدَّاخِلُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ كَذَلِكَ؛ وَبِهَذَا فَسَّرَ الْأَئِمَّةُ هَذَا الْحَدِيثَ.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ» : «أَمَا إِنَّه مَا يَذْهَبُ الإسلامُ، وَلَكِنْ يَذْهَبُ أَهْلُ السُّنَةِ، حَتَّى مَا يَبْقَى فِي الْبَلَدِ مِنْهُم إِلاّ رَجُلٌ وَاحِدٌ».

وَلِهَذَا الْمَعْنَى يُوجَدُ فِي كَلَامِ السَّلَفِ كَثِيرًا مَدْحُ السُّنَّةِ وَوَصْفُهَا بِالْغُرْبَةِ وَوَصْفُ أَهْلِهَا بِالْقِلَّةِ؛ فَكَانَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: «يَا أَهْلَ السُّنَّةِ! تَرَفَّقُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - فَإِنَّكُمْ مِنْ أَقَلِّ النَّاسِ».

وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيدٍ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَغْرَبَ مِنَ السُّنَّةِ، وَأَغْرَبُ مِنْهَا مَنْ يَعْرِفُهَا».

وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «أَصْبَحَ مَنْ إِذَا عُرِّفَ بِالسُّنَّةِ فَعَرَفَهَا غَرِيبًا، وَأَغرَبُ مِنْهُ مَنْ يُعَرِّفُهَا».

وَعَنْ سفيان الثوري قال: «اسْتَوْصُوا بِأَهْلِ السُّنَّةِ خَيْرًا، فَإِنَّهُمْ غُرَبَاءُ».

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

وَمُرَادُ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ بِالسُّنَّةِ: طَرِيقَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا هُوَ وَأَصْحَابُهُ، السَّالِمَةُ مِنْ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ.

وَلِهَذَا كَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ يَقُولُ: «أَهْلُ السُّنَّةِ مَنْ عَرَفَ مَا يَدْخُلُ فِي بَطْنِهِ مِنْ حَلَالٍ». وَذَلِكَ لِأَنَّ أَكْلَ الْحَلَالِ مِنْ أَعْظَمِ خَصَالِ السُّنَّةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ثُمَّ صَارَ فِي عُرْفِ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِمْ: «السُّنَّةُ» عِبَارَةٌ عَمَّا سَلِمَ مِنَ الشُّبُهَاتِ فِي الْاعْتِقَادَاتِ خَاصَّةً؛ فِي مَسَائِلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَكَذَلِكَ مَسَائِلِ الْقَدَرِ وَفَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، وَصَنَّفُوا فِي هَذَا الْعِلْمِ تَصَانِيفَ سَمَّوْهَا كُتُبَ السُّنَّةِ، وَإِنَّمَا خَصُّوا هَذَا الْعِلْمَ بِاسْمِ السُّنَّةِ؛ لِأَنَّ خَطَرَهُ عَظِيمٌ، وَالْمُخَالِفَ فِيهِ عَلَى شَفَا هَلَكَةٍ.

وَأَمَّا السُّنَّةُ الْكَامِلَةُ: فَهِيَ الطَّرِيقُ السَّالِمَةُ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَيُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ وَسُفْيَانُ وَالْفُضَيْلُ وَغَيْرُهُمْ، وَلِهَذَا وُصِفَ أَهْلُهَا بِالْغُرْبَةِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لِقِلَّتِهِمْ وَغُرْبَتِهِمْ فِيهِ، وَلِهَذَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ كَمَا سَبَقَ فِي تَفْسِيرِ الْغُرَبَاءِ: «قَوْمٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي قَوْمِ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ». وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى قِلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَقِلَّةِ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُمْ وَالْقَابِلِينَ مِنْهُمْ، وَكَثْرَةِ الْمُخَالِفِينَ لَهُمْ وَالْعَاصِينَ لَهُمْ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي أَحَادِيثَ مُتَعَدِّدَةٍ مَدْحُ الْمُتَمَسِّكِ بِدِينِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَأَنَّهُ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، وَأَنَّ لِلْعَامِلِ مِنْهُمْ أَجَرَ خَمْسِينَ مِمَّنْ قَبْلَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ أَعْوَانًا فِي الْخَيْرِ.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

وَهَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءُ قِسْمَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَنْ يُصْلِحُ نَفْسَهُ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ.

وَالثَّانِي: مَنْ يُصْلِحُ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنَ السُّنَّةِ، وَهُوَ أَعْلَى الْقِسْمَيْنِ وَأَفْضَلُهُمَا.

وَقَدْ خَرَّجَ الطَّبَرَانِيُّ وَغَيْرُهُ - بِإِسْنَادٍ فِيهِ نَظَرٌ - مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

«إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا، وَإِنَّ مِنْ إِقْبَالِ هَذَا الدِّينِ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَى وَالْجَهَالَةِ وَمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، وَإِنَّ مِنْ إِقْبَالِ هَذَا الدِّينِ أَنْ تَفْقَهَ الْقَبِيلَةُ بِأَسْرِهَا حَتَّى لَا يُوجَدَ فِيهَا إِلَّا الْفَاسِقُ وَالْفَاسِقَانِ، فَهُمَا مَقْهُورَانِ ذَلِيلَانِ، إِنْ تَكَلَّمَا قُمِعَا وَقُهِرَا وَاضْطُهِدَا، وَإِنَّ مِنْ إِدْبَارِ هَذَا الدِّينِ، أَنْ تَجْفُوَ الْقَبِيلَةُ بِأَسْرِهَا، حَتَّى لَا يُرَى فِيهَا إِلَّا الْفَقِيهُ وَالْفَقِيهَانِ، فَهُمَا مَقْهُورَانِ ذَلِيلَانِ، إِنْ تَكَلَّمَا فَأَمَرَا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيَا عَنِ الْمُنْكَرِ قُمِعَا وَقُهِرَا وَاضْطُهِدَا، فَهُمَا مَقْهُورَانِ ذَلِيلَانِ، لَا يَجِدَانِ عَلَى ذَلِكَ أَعْوَانًا وَلَا أَنْصَارًا».

فَوُصِفَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْمُؤْمِنُ الْعَالِمُ بِالسُّنَّةِ الْفَقِيهُ فِي الدِّينِ، بِأَنَّهُ سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ فَسَادِهِ مَقْهُورًا ذَلِيلًا، لَا يَجِدُ أَعْوَانًا وَلَا أَنْصَارًا.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

وَخَرَّجَ الطَّبَرَانِيُّ - أَيْضًا بِإِسْنَادٍ فِيهِ ضَعْفٌ - عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ فِي ذِكْرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، قَالَ: «وَإِنَّ مِنْ أَشْرَاطِهَا أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ فِي الْقَبِيلَةِ أَذَلَّ مِنَ النَّقَدِ».

وَ «النَّقَدُ»(١): هُمُ الْغَنَمُ الصِّغَارُ.

وَفِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ» عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ: «يُوشِكُ إِنْ طَالَتْ بِكَ الْحَيَاةُ أَنْ تَرَى الرَّجُلَ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعَادَهُ وَأَبْدَاهُ، وَأَحَلَّ حَلَالَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، وَنَزَلَ عِنْدَ مَنَازِلِهِ، لَا يَحُورُ فِيكُمْ إِلَّا كَمَا يَحُورُ رَأْسُ الْحِمَارِ الْمَيِّتِ».

وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ فِيهِ أَذَلَّ مِنَ الْأَمَةِ».

وَإِنَّمَا ذَلَّ الْمُؤْمِنُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ؛ لِغُرْبَتِهِ بَيْنَ أَهْلِ الْفَسَادِ مِنْ أَهْلِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ فَكُلُّهُمْ يَكْرَهُهُ وَيُؤْذِيهِ؛ لِمُخَالَفَةِ طَرِيقِهِ لِطَرِيقِهِمْ، وَمَقْصُودِهُ لِمَقْصُودِهِمْ، وَمُبَايَنَتِهِ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ.

وَلَمَّا مَاتَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ قَالَ ابْنُ السَّمَّاكِ: «إِنَّ دَاوُدَ نَظَرَ بِقَلْبِهِ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَغْشَى بَصَرُ قَلْبِهِ بَصَرَ الْعُيُونِ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَا أَنْتُمْ إِلَيْهِ تَنْظُرُونَ، وَكَأَنَّكُمْ لَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَا إِلَيْهِ يَنْظُرُ، فَأَنْتُمْ مِنْهُ تَعْجَبُونَ، وَهُوَ مِنْكُمْ يَعْجَبُ، اسْتَوْحَشَ مِنْكُمْ، إِنَّه كَانَ حَيًّا وَسَطَ مَوْتَى».

وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَكْرَهُهُ أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ؛ لِاسْتِنْكَارِ حَالِهِ!

سَمِعَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ امْرَأَتَهُ مَرَّةً تَقُولُ: أَرَاحَنَا اللهُ مِنْكَ. فَقَالَ: آمِين.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

.....

(١) النَّقَدُ: السُّفَّلُ مِنَ النَّاسِ، وَقِيلَ: النقَدُ، بِالتَّحْرِيكِ، جِنْسٌ مِنَ الغَنَم قِصار الأَرْجُل قِباح الوُجوه.اهـ انظر «لسان العرب» لابن منظور (٤٢٦/٣).

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ قَدِيمًا يَصِفُونَ الْمُؤْمِنَ بِالْغُرْبَةِ فِي زَمَانِهِمْ، كَمَا سَبَقَ مِثْلُهُ عَنِ الْحَسَنِ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَسُفْيَانَ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْ كَلَامِ أَحْمَدَ بْنِ عَاصِمٍ الْأَنْطَاكِيِّ - وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الْعَارِفِينَ فِي زَمَانِ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ -:

«إِنِّي أَدْرَكْتُ مِنَ الْأَزْمِنَةِ زَمَانًا عَادَ فِيهِ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَعَادَ وَصْفُ الْحَقِّ فِيهِ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، إِنْ تَرْغَبَ فِيهِ إِلَى عَالِمٍ وَجَدْتَهُ مَفْتُونًا بِحُبِّ الدُّنْيَا، يُحِبُّ التَّعْظِيمَ وَالرِّئَاسَةِ، وَإِنْ تَرْغَبَ فِيهِ إِلَى عَابِدٍ وَجَدْتَهُ جَاهِلًا فِي عِبَادَتِهِ مَخْدُوعًا، صَرِيعَ عَدُوِّهِ إِبْلِيس، قَدْ صَعِدَ بِهِ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةِ الْعِبَادَةِ وَهُوَ جَاهِلٌ بِأَدْنَاهَا، فَكَيْفَ لَهُ بِأَعْلَاهَا؟! وَسَائِرُ ذَلِكَ مِنَ الرِّعَاعِ قَبِيحٌ[1] أَعْوَجُ، وَذِئَابٌ مُخْتَلِسَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، وَثَعَالِبُ صَائِلَةٌ، هَذَا وَصْفُ عُيُونِ أَهْلِ زَمَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ وَدُعَاةِ الْحِكْمَةِ».

خَرَّجَهُ أَبُو نُعَيمٍ فِي «الْحِلْيَةِ».

فَهَذَا وَصْفُ أَهْلِ زَمَانِهِ، فَكَيْفَ بِمَا حَدَثَ بَعْدَهُ مِنَ الْعَظَائِمِ وَالدَّوَاهِي الَّتِي لَمْ تَخْطُرْ بِبَالِهِ، وَلَمْ تَدُرْ فِي خَيَالِهِ؟!

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

(١) في نسخةٍ أخرى: (ثَبَجٌ أَعْوَج). ثبج كل شيء: معظمه ووسطه وأعلاه...، والثبج: الوسط، وما بين الكاهل إلى الظَّهر. انظر «لسان العرب» لابن منظور (٢/٢١٩).

وَخَرَّج الطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «الْمُسْتَمْسِكُ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي لَهُ أَجْرُ شَهِيدٍ».

وَخَرَّج أَبُو الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ بُعِثَ الْيَوْمَ: مَا عَرَفَ مِنَ الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الصَّلَاةَ». ثُمَّ قَالَ: «أَمَا وَاللَّهِ! لَئِنْ عَاشَ عَلَى هَذِهِ النُّكُرَاتِ فَرَأَى صَاحِبَ بِدْعَةٍ يَدْعُو إِلَى بِدْعَتِهِ، وَصَاحِبَ دُنْيَا يَدْعُو إِلَى دُنْيَاهُ، فَعَصَمَهُ اللهُ ﷻ ، وَقَلْبُهُ يَحِنُّ إِلَى السَّلَفِ الصَّالِحِ، فَيَتَّبِعُ آثَارَهُمْ، وَيَسْتَنُّ بِسُنَّتِهِمْ، وَيَتَّبِعُ سَبِيلَهُمْ؛ كَانَ لَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

وَرَوَى الْمُبَارَكُ بْنُ فَضَالَة، عَنِ الْحَسَنِ: أَنَّهُ ذَكَرَ الْغَنِيَّ الْمُتْرَفَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانٌ يَأْخُذُ الْمَالَ وَيَدَّعِي أَنَّهُ لَا عِقَابَ فِيهِ، وَذَكَرَ الْمُبْتَدِعَ الضَّالَ الَّذِي خَرَجَ بِسَيْفِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَتَأَوَّلَ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ فِي الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ قَالَ:

«سُنَّتُكُمْ - وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ- بَيْنَهُمَا: بَيْنَ الْغَالِي وَالْجَافِي، وَالْمُتْرَفِ وَالْجَاهِلِ، فَاصْبِرُوا عَلَيْهَا، فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ كَانُوا أَقَلَّ النَّاسِ الَّذِينَ لَمْ يَأْخُذُوا مِنْ أَهْلِ الْإِتْرَافِ إِتْرَافَهِمْ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الْبِدَعِ أَهْوَاءَهُمْ، وَصَبَرُوا عَلَى سُنَّتِهِمْ حَتَّى أَتَوا رَبَّهُمْ، فَكَذَلِكَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فَكُونُوا».

ثُمَّ قَالَ: «وَاللَّهِ! لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَدْرَكَ هَذِهِ النُّكُرَاتِ، يَقُولُ هَذَا: هَلُمَّ إِلَيَّ! وَيَقُولُ هَذَا: هَلُمَّ إِلَيَّ! فَيَقُولُ: لَا أُرِيدُ إِلَّا سَنَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَطْلُبُهَا وَيَسْأَلُ عَنْهَا، إِنَّ هَذَا لَيُقْرَضُ[1] لَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ، فَكَذَلِكَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ- فَكُونُوا».

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

.....

(١) في نسخة أخرى: (لَيُعْرَض).

وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى مَا رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ وَغَيْرُهُ، عَنْ كُمَيْلِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ:

«النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ. ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامًا فِي فَضْلِ الْعِلْمِ، إِلَى أَنْ قَالَ: (هَاهْ!)[1] إِنَّ هَا هُنَها -وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ- عِلْمًا، لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً، بَلْ أَصَبْتُهُ لَقِنًا غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، يَسْتَعْمِلُ آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، يَسْتَظْهِرُ بِحُجَجِ اللهِ عَلَى كِتَابِهِ، وَبِنِعْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ. أَوْ مُنْقَادًا لِأَهْلِ الْحَقِّ، لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، لَا ذَا، وَلَا ذَا. أَوْ مَنْهُومًا بِاللَّذَاتِ سَلِسُ (الانْقِيَادِ)[2] لِلشَّهَوَاتِ، أَوْ مُغْرًى بِجَمْعِ الْمَالِ وَالادِّخَارِ، وَلَيْسَا مِنْ دُعَاةِ الدِّينِ، أَقْرَبُ شَبَهًا بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّارِحَةُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ، اللَّهُمَ بَلَى لَنْ تَخْلُو الْأَرْضُ عَنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ لِكَيْلَا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وَبَيِّنَاتُهِ، أَولئِكَ هُمُ الْأَقَلُّونَ عَدَدًا، وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللهِ قَدْرًا، بِهِمْ يَدْفَعُ اللهُ عَنْ حُجَجِهِ حَتَّى يُؤَدُّونَهَا إِلَى نُظَرَائِهِمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهُمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، فَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَ مِنْهُ الْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، صَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَنْظَرِ الْأَعْلَى، أُولئِكَ خُلَفَاءُ اللهِ فِي بِلَادِهِ، وَدُعَاتِهِ إِلَى دِينِهِ، هَاهْ هَاهْ شَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِهِمْ».

فَقَسَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَمَلَةَ الْعِلْمِ إِلَى ثَلَاثِ أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ هُمْ أَهْلُ الشُّبُهَاتِ: وَهُمْ مَنْ لَا بَصِيرَةَ لَهُ مِنْ حَمَلَةِ الْعِلْمِ؛ بَلْ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، فَتَأْخُذُهُ الشُّبْهَةُ، فَيَقَعُ فِي الْحَيْرَةِ وَالشُّكُوكِ وَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ.

وَقِسْمٌ هُمْ أَهْلُ الشَّهَوَاتِ، وَجَعَلَهُمْ نَوْعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِنَفْسِ الْعِلْمِ، فَيَجْعَلُ الْعِلْمَ آلَةً لِكَسْبِ الدُّنْيَا.

وَالثَّانِي: مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِغَيْرِ الْعِلْمِ، وَهَذَا النَّوْعُ ضَرْبَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَنْ هَمُّهُ مِنَ الدُّنْيَا لَذَّاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، فَهُوَ مَنْهُومٌ بِذَلِكَ، سَرِيعُ الانْقِيَادِ إِلَيْهِ.

وَالثَّانِي: مَنْ هَمُّهُ جَمْعُ الدُّنْيَا وَاكْتِنَازُهَا وَادِّخَارُهَا.

---

(١) في نسخة أخرى: قال: (آه).

(٢) في نسخة أخرى: (القِياد).

وَكُلُّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ دُعَاةِ الدِّينِ، وَإِنَّمَا هُمْ كَالْأَنْعَامِ، وَلِهَذَا شَبَّهَ اللهُ تَعَالَى مَنْ حُمِّلَ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلْهَا بِالْحِمَارِ الَّذِي يَحْمِلُ أَسْفَارًا، وَشَبَّهَ عَالِمَ السَّوْءِ الَّذِي انْسَلَخَ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَأَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ بِالْكَلْبِ، وَالْكَلْبُ وَالْحِمَارُ أَخَسُّ الْأَنْعَامِ وَأَضَلُّ سَبِيلاً.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ مِنْ حَمَلَةِ الْعِلْمِ: هُمْ أَهْلُهُ وَحَمَلَتُهُ وَرُعَاتُهُ، وَالْقَائِمُونَ بِحُجَجِ اللهِ وَبَيِّنَاتِهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُمُ الْأَقَلُّونَ عَدَدًا، [الْأَعْظَمُونَ][1] عِنْدَ اللهِ قَدْرًا إِشَارَةً إِلَى قِلَّةِ هَذَا الْقِسْمِ وَعِزَّتِهِ فِي حَمَلَةِ الْعِلْمِ، وَغُرْبَتِهِ بَيْنَهُمْ.

---

(١) كتب في الهامش: (الأعظم).

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

وَقَدْ قَسَّمَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ هَذَا التَّقْسِيمِ الَّذِي قَسَّمَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لِحَمَلَةِ الْعِلْمِ.

قَالَ الْحَسَنُ: قُرَّاءُ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ:

«صِنْفٌ اتَّخَذُوهُ بِضَاعَةً يَأْكُلُونَ بِهِ.

وَصِنْفٌ أَقَامُوا حُرُوفَهُ وَضَيَّعُوا حُدُودَهُ، وَاسْتَطَالُوا بِهِ عَلَى أَهْلِ بِلَادِهِمْ، وَأَسْدَنُوا بِهِ الْوِلَايَةَ، كَثُرَ هَذَا الضَّرْبُ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ، لَا كَثَّرَهُمُ اللهُ.

وَصِنْفٌ عَمَدُوا إِلَى دَوَاءِ الْقُرْآنِ، فَوَضَعُوهُ عَلَى دَاءِ قُلُوبِهِمْ، فَرَكَدُوا بِهِ فِي مَحَارِيبِهِمْ، وَحَنُوا فِي (بَرَانِسِهِمْ)، وَاسْتَشْعَرُوا الْخَوْفَ، وَارْتَدَوُا الْحُزْنَ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَسْقِي اللهُ بِهِمُ الْغَيْثَ، وَيَنْصُرُ بِهِم عَلَى الْأَعْدَاءِ. وَاللَّهِ! لَهَؤُلَاءِ الضَّرْبُ فِي حَمَلَةِ الْقُرْآنِ أَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الْأَحْمَرِ».

فَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الْقِسْمَ - وَهُمُ الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ لِلَّهِ وَجَعَلُوهُ دَوَاءً لِقُلُوبِهِمْ، فَأَثْمَرَ لَهُمُ الْخَوْفَ وَالْحُزْنَ- أَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الْأَحْمَرِ بَيْنَ قُرَّاءِ الْقُرْآنِ.

وَوَصَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هَذَا الْقِسْمَ مِنْ حَمَلَةِ الْعِلْمِ بِصِفَاتٍ:

مِنْهَا: «أَنَّهُ هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ»، وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ الْعِلْمَ دَهَّمْ عَلَى الْمَقْصُودِ الْأَعْظَمِ مِنْهُ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَى، فَخَافُوهُ وَأَحَبُّوهُ، حَتَّى سَهَّلَ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ كُلَّ مَا تَعَسَّرَ عَلَى غَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِمَّنْ وَقَفَ مَعَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، وَاغْتَرَّ بِهَا وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبُهُ مَعْرِفَةَ اللهِ وَعَظَمَتِهِ وَإِجْلَالِهِ. فَلِذَلِكَ قَالَ: «اسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَ مِنْهُ الْمُتْرَفُونَ»؛ فَإِنَّ الْمُتْرَفَ الْوَاقِفَ مَعَ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا يَصْعُبُ عَلَيْهِ تَرْكُ لَذَّاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا؛ لِأَنَّه لَا عِوَضَ عِنْدَهُ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا إِذَا تَرَكَهَا، فَهُوَ لَا يَصْبِرُ عَلَى تَرْكِهَا.

وَهَؤُلَاءِ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِوَضُ الْأَكْبَرُ بِمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ لَذَّةِ مَعْرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَإِجْلَالِهِ، كَمَا كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: «إِنَّ أَحِبَّاءَ اللهِ هُمُ الَّذِينَ وَرِثُوا طِيبَ الْحَيَاةِ، وَذَاقُوا نَعِيمَهَا بِمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ مُنَاجَاةِ حَبِيبِهِمْ، وَبِمَا وَجَدُوا مِنْ لَذَّةِ حُبِّهِ فِي قُلُوبِهِمْ». فِي كَلَامٍ يَطُولُ ذِكْرُهُ هَاهُنَا فِي هَذَا الْمَعْنَى.

وَإِنَّمَا أَنِسَ هَؤُلَاءِ بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ؛ لِأَنَّ الْجَاهِلِينَ بِاللَّهِ يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ تَرْكِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا، فَهِيَ أُنْسُهُمْ وَهَؤُلَاءِ يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ ذَلِكَ، وَيَسْتَأْنِسُونَ بِاللَّهِ وَبِذِكْرِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ

وَمَحَبَّتِهِ وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ.

وَالْجَاهِلُونَ بِاللَّهِ يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَجِدُونَ الْأُنْسَ بِهِ!.

وَمِنْ صِفَاتِهِمُ الَّتِي وَصَفَهُمْ بِهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : «أَنَّهُمْ صَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَنْظَرِ الْأَعْلَى، وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوا الدُّنْيَا وَطَنًا، وَلَا رَضُوا بِهَا إِقَامَةً (وَمَسْكَنًا)، إِنَّمَا اتَّخَذُوهَا مَمَرًّا وَلَمْ يَجْعَلُوهَا مُسْتَقَرًّا».

جامع عثبة بن غزوان رضي الله عنه

وَجَمِيعَ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ أَوْصَتْ بِهَذَا، وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَنْ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ فِي جُمْلَةِ وَعْظِهِ لَهُمْ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ عُمَرَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ».

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

وَمِنْ وَصَايَا الْمَسِيحِ الْمَرْوِيَّةِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «اعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا».

وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «مَنِ الَّذِي يَبْنِي عَلَى مَوْجِ الْبَحْرِ دَارًا؟ تِلْكَ الدُّنْيَا فَلَا تَتَّخِذُوهَا قَرَارًا».

فَالْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا كَالْغَرِيبِ الْمُجْتَازِ بِبَلْدَةٍ، غَيْرِ مُسْتَوْطِنٍ فِيهَا، فَهُوَ يَشْتَاقُ إِلَى بَلَدِهِ، وَهَمُّهُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ وَالتَّزَوُّدُ بِمَا يُوصِلُهُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى وَطَنِهِ، وَلَا يُنَافِسُ أَهْلَ ذَلِكَ الْبَلَدِ الْمُسْتَوْطِنِينَ فِيهِ فِي عِزِّهِمْ، وَلَا يَجْزَعُ مِمَّا أَصَابَهُ عِنْدَهُمْ مِنَ الذُّلِّ.

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: «الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا مَهْمُومٌ حَزِينٌ، هَمُّهُ مَرَمَّةُ جَهَازِهِ».

وَقَالَ الْحَسَنُ: «الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا كَالْغَرِيبِ لَا يَجْزَعُ مِنْ ذُلِّهَا، وَلَا يُنَافِسُ فِي عِزِّهَا، لَهُ شَأْنٌ وَلِلنَّاسِ شَأْنٌ».

وَفِي الْحَقِيقَةِ فَالْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا غَرِيبٌ؛ لِأَنَّ أَبَاهُ إِنَّمَا كَانَ فِي دَارِ الْبَقَاءِ، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا، فَهَمُّهُ الرُّجُوعُ إِلَى مَسْكَنِهِ الْأَوَّلِ، فَهُوَ أَبَدًا يَحِنُّ إِلَى وَطَنِهِ الَّذِي أُخْرِجَ مِنْهُ، كَمَا يُقَالُ: «حُبُّ الْوَطَنِ مِنَ الْإِيمَانِ».

وَكَمَا قِيلَ:

وَكَمْ مَنْزِلٍ لِلْمَرْءِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى ... وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

وَلِبَعْضِ شُيُوخِنَا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى ... نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلَّمُ

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْغَرِيبَ إِذَا نَأَى ... وَشَطَّتْ بِهِ أَوْطَانُهُ فَهْوَ مُغْرَمُ

وَأَيُّ اغْتِرَابٍ فَوْقَ غُرْبَتِنَا الَّتِي ... لَهَا أَضْحَتِ الْأَعْدَاءُ فِينَا تَحَكَّمُ

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

وَالْمُؤْمِنُونَ فِي هَذَا أَقْسَامٌ: مِنْهُمْ مَنْ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْجَنَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ عِنْدَ خَالِقِهِ، وَهُمُ الْعَارِفُونَ، وَلَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا أَشَارَ إِلَى هَذَا الْقِسْمِ، فَالْعَارِفُونَ أَبْدَانُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَقُلُوبُهُمْ عِنْدَ الْمَوْلَى.

وَفِي مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ رَبِّهِ تَعَالَى قَالَ: «عَلَامَةُ الطُّهْرِ أَنْ يَكُونَ قَلْبُ الْعَبْدِ عِنْدِي مُعَلَّقًا، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَنْسَنِي عَلَى حَالٍ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ مَنَنْتُ عَلَيْهِ بِالِاشْتِغَالِ بِي، كَيْ لَا يَنْسَانِي، فَإِذَا لَمْ يَنْسِنِي حَرَّكْتُ قَلْبَهُ، فَإِنْ تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ لِي، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ لِي، فَذَلِكَ الَّذِي تَأْتِيهِ الْمَعُونَةُ مِنْ عِنْدِي».

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

وَأَهْلُ هَذَا الشَّأْنِ هُمْ غُرَبَاءُ الْغُرَبَاءِ، وَغُرْبَتُهُمْ أَعَزُّ الْغُرْبَةِ **فَإِنَّ الْغُرْبَةَ عِنْدَ أَهْلِ الطَّرِيقَةِ غُرْبَتَانِ: ظَاهِرَةٌ، وَبَاطِنَةٌ.**

فَالظَّاهِرَةُ: غُرْبَةُ أَهْلِ الصَّلَاحِ بَيْنَ الْفُسَّاقِ، وَغُرْبَةُ الصَّادِقِينَ بَيْنَ أَهْلِ الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ، وَغُرْبَةُ الْعُلَمَاءِ بَيْنَ أَهْلِ الْجَهْلِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ، وَغُرْبَةُ أَهْلِ الْآخِرَةِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الدُّنْيَا الَّذِينَ سُلِبُوا الْخَشْيَةَ وَالْإِشْفَاقِ، وَغُرْبَةُ الزَّاهِدِينَ بَيْنَ الرَّاغِبِينَ فِي كُلِّ مَا يَنْفَدُ وَلَيْسَ هُوَ بِبَاقٍ.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

وَأَمَّا الْغُرْبَةُ الْبَاطِنَةِ: فَغُرْبَةُ الْهِمَّةِ، وَهِيَ غُرْبَةُ الْعَارِفِ بَيْنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، حَتَّى الْعُلَمَاءِ وَالْعَبَّادِ وَالزُّهَادِ، فَإِنَّ أُولئِكَ وَاقِفُونَ مَعَ عِلْمِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَزُهْدِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ وَاقِفُونَ مَعَ مَعْبُودِهِمْ، لَا يُعَرِّجُونَ بِقُلُوبِهِمْ عَنْهُ.

كَانَ أَبُو سُلَيْمَانَ يَقُولُ فِي وَصْفِهِمْ: «هِمَّتُهُمْ غَيْرُ هِمَّةِ النَّاسِ، وَإِرَادَتُهُمْ مِنَ الْآخِرَةِ غَيْرُ إِرَادَةِ النَّاسِ، وَدُعَاؤُهُمْ غَيْرُ دُعَاءِ النَّاسِ».

وَسُئِلَ عَنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، فَبَكَى وَقَالَ: «أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى قَلْبِكَ فَلَا يَرَاكَ تُرِيدُ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ غَيْرَهُ».

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: «الزَّاهِدُ غَرِيبُ الدُّنْيَا، وَالْعَارِفُ غَرِيبُ الْآخِرَةِ».

يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الزَّاهِدَ غَرِيبٌ بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْعَارِفَ غَرِيبٌ بَيْنَ أَهْلِ الْآخِرَةِ، لَا يَعْرِفُهُ الْعُبَّادُ وَلَا الزُّهَّادُ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُهُ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ، وَهِمَّتُهُ كَهِمَّتِهِ.

وَرُبَّمَا اجْتَمَعَتْ لِلْعَارِفِ هَذِهِ الْغُرُبَاتِ كُلُّهَا، أَوْ كَثِيرٌ مِنهَا أَوْ بَعْضُهَا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ غُرْبَتِهِ حِينَئِذٍ، فَالْعَابِدُونَ ظَاهِرُونَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْعَارِفُونَ مَسْتُورُونَ عَنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: «الْعَابِدُ مَشْهُورٌ، وَالْعَارِفُ مَسْتُورٌ».

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

وَرُبَّمَا خَفِيَ حَالُ الْعَارِفِ عَلَى نَفْسِهِ؛ لِخَفَاءِ حَالِهِ، وَإِسَاءَتِهِ الظَّنَّ بِنَفْسِهِ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: «مَا أَرَى هَذَا الْأَمْرَ إِلَّا فِي رَجُلٍ لَا يَعْرِفُ ذَاكَ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ مِنْهُ».

وَفِي حَدِيثِ سَعْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْخَفِيَّ التَّقِيَّ».

وَفِي حَدِيثِ مُعَاذٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ الْأَخْفِيَاءَ الْأَتْقِيَاءَ، الَّذِينَ إِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، وَإِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، أُولَئِكَ أَئِمَّةُ الْهُدَى وَمَصَابِيحُ الْعِلْمِ».

وَعَنْ عَلِيٍّ: «طُوبَى لِكُلِّ عَبْدٍ نُومَةٍ[1] عَرَفَ النَّاسَ، وَلَمْ تَعْرِفْهُ النَّاسُ، وَعَرَفَهُ اللهُ مِنْهُ بِرِضْوَانٍ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى، تُجْلَى عَنْهُمْ كُلُّ فِتْنَةٍ مُظْلِمَةٍ».

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : «كُونُوا جُدُدَ الْقُلُوبِ، خُلْقَانَ الثِّيَابِ، مَصَابِيحَ الظَّلَامِ، تَخْفَوْنَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَتُعْرَفُونَ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ».

فَهَؤُلَاءِ هُمْ أَخَصُّ أَهْلِ الْغُرْبَةِ، «وَهُمْ الْفَرَّارُونَ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتَنِ»، «وَهُمْ النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ»، «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ مَعَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ »، وَهُمْ بَيْنَ أَهْلِ الْآخِرَةِ أَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الْأَحْمَرِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا؟! وَتَخْفَى أَحْوَالُهُمْ غَالِبًا عَلَى الْفَرِيقَيْنِ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

تَوَارَيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ ... فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسْأَلِ الْأَيَّامَ مَا اسْمِي؟ مَا دَرَتْ ... وَأَيْنَ مَكَانِي؟ مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

(١) قال ابنُ الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر»(٥/١٣١): وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ «أَنَّهُ ذَكَرَ آخِرَ الزَّمان والفِتَن، ثُمَّ قَالَ: خَير أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ كلُّ مُؤمنٍ نُومَةٍ» النُّومَةُ، بِوَزْنِ الهُمَزَة: الخامِلُ الذِّكْر الَّذِي لَا يُؤْبَه لَهُ. وَقِيلَ: الْغَامِضُ فِي النَّاسِ الَّذِي لَا يَعْرِف الشَّر وأهلَه. وَقِيلَ: النُّومَةُ بِالتَّحْرِيكِ: الْكَثِيرُ النَّوْم. وَأَمَّا الْخَامِلُ الَّذِي لَا يُؤْبَه لَهُ، فَهُوَ بالتَّسْكين.اهـ

وَمَنْ ظَهَرَ مِنْهُمْ لِلنَّاسِ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ بِبَدَنِهِ، وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى، كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَصْفِهِمْ، وَكَمَا قِيلَ:

جِسْمِي مَعِي غَيْرَ أَنَّ الرُّوحَ عِنْدَكُمُ ... فَالْجِسْمُ فِي غُرْبَةٍ وَالرُّوحُ فِي وَطَنِ

وَكَانَتْ رَابِعَةُ تُنْشِدُ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَدِّثِي ... وَأَبَحْتُ جِسْمِيَ مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي

فَالْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ ... وَحَبِيبُ قَلْبِي فِي الْفُؤَادِ أَنِيسِي

جامع عنبة بن غزوان رضي الله عنه

وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَقْوَى عَلَى مُخَالَطَةِ الْخَلْقِ، فَهُوَ يَفِرُّ إِلَى الْخَلْوَةِ بِحَبِيبِهِ، وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ يُطِيلُ الْوَحْدَةَ.

قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: أَلَا تَسْتَوْحِشُ؟ قَالَ: «كَيْفَ أَسْتَوْحِشُ وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي؟!».

وَقَالَ آخَرُ: «وَهَلْ يَسْتَوْحِشُ مَعَ اللهِ أَحَدٌ؟».

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: «مَنِ اسْتَوْحَشَ مِنْ وَحْدَتِهِ فَذَاكَ لِقِلَّةِ أُنْسِهِ بِرَبِّهِ».

كَانَ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ كَثِيرَ الْعُزْلَةِ وَالْانْفِرَادِ، فَعَاتَبَهُ أَخُوهُ فَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ مِنَ النَّاسِ فَلَا بُدَّ لَكَ مِنَ النَّاسِ. فَقَالَ يَحْيَى: «إِنْ كُنْتَ مِنَ النَّاسِ، فَلَا بُدَّ لَكَ مِنَ اللهِ».

وَقِيلَ لَهُ: إِذَا هَجَرْتَ الْخَلْقَ مَعَ مَنْ تَعِيشُ؟ قَالَ: «مَعَ مَنْ هَجَرْتُهُمْ لَهُ».

وَأَنْشَدَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

هَجَرْتُ الْخَلْقَ طُرًّا فِي هَوَاكَا ... وَأَيْتَمْتُ الْعِيَالَ لِكَيْ أَرَاكَا

فَلَوْ قَطَّعْتَنِي فِي الْحُبِّ إِرْبًا ... لَمَا حَنَّ الْفُؤَادُ إِلَى سِوَاكَا

وَعُوتِبَ غَزْوَانُ عَلَى خَلْوَتِهِ فَقَالَ: «أَصَبْتُ رَاحَةَ قَلْبِي فِي مُجَالَسَةِ مَنْ لَدَيْهِ حَاجَتِي».

وَلِغُرْبَتِهِمْ بَيْنَ النَّاسِ رُبَّمَا نُسِبَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْجُنُونِ؛ لِبُعْدِ حَالِهِ مِنْ حَالِ النَّاسِ، كَمَا كَانَ أُوَيْسُ يُقَالُ ذَلِكَ عَنْهُ.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

وَكَانَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخُوْلَانِّي كَثِيرَ اللَّهَجِ بِالذِّكْرِ، لَا يَفْتُرُ لِسَانُهُ مِنْهُ، فَقَالَ رَجُلٌ لِجُلَسَائِهِ: أَمَجْنُونٌ صَاحِبُكُمْ؟ قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: «لَا يَا أَخِي! وَلَكِنْ هَذَا دَوَاءُ الْجُنُونِ».

وَفِي حَدِيثٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : «اذْكُرُوا اللَّهَ حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ».

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي وَصْفِهِمْ: «إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمُ الْجَاهِلُ حَسِبَهُمْ مَرْضَى وَمَا بِالْقَوْمِ مَرَض. وَيَقُولُ: قَدْ خُولِطُوا، وَقَدْ خَالَطَ الْقَوْمَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، هَيْهَاتَ، وَاللَّهِ! مَشْغُولُونَ عَنْ دُنْيَاكُمْ».

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَالَ:

وَحُرْمَةِ الْوُدِّ مَا لِي عَنْكُمُ عِوَضُ ... وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكُمْ سَادَتِي غَرَضُ

وَقَدْ شَرَطْتُ عَلَى قَوْمٍ صَحِبْتُهُمُ ... بِأَنَّ قَلْبِي لَكُمْ مِنْ دُونِهِمْ فَرَضُوا

وَمِنْ حَدِيثِي بِهِمْ قَالُوا: بِهِ مَرَضُ ... فَقُلْتُ: لَا زَالَ عَنِّي ذَلِكَ الْمَرَضُ

وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَوْصَى رَجُلًا فَقَالَ: اسْتَحِ مِنَ اللهِ كَمَا تَسْتَحِي مِنْ رَجُلَيْنِ مِنْ صالِحِي عَشِيرَتِكَ، لَا يُفَارِقَانِكَ».

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ».

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «أَنَّهُ سُئِلَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : مَا تَزْكِيَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ».

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ فِي ظِلِّ اللهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... فَذَكَرَ مِنْهُمْ رَجُلًا حَيْثُ تَوَجَّهَ عَلِمَ أَنَّ اللهَ مَعَهُ».

وَثَبَتَ عَنْهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْإِحْسَانِ فَقَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

.....

.....

.....

.....

وَلِأَبِي عُبَادَةَ الْبُحْتُرِيِّ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَبْيَاتٌ حَسَنَةٌ، لَكِنَّهُ أَسَاءَ بِقَوْلِهَا فِي مَخْلُوقٍ، وَقَدْ أَصْلَحْتُ مِنْهَا كَلِمَاتٍ حَتَّى اسْتَقَامَتْ عَلَى الطَّرِيقَةِ:

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَرْعَى خَوَاطِرِي ... وَآخَرَ يَرْعَى نَاظِرِي وَلِسَانِي

فَمَا بَصُرَتْ عَيْنَايَ بَعْدَكَ مَنْظَرًا ... يَسُوؤُكَ إِلَّا قُلْتُ قَدْ رَمَقَانِي

وَلَا بَدَرَتْ مِنْ فِيَّ بَعْدَكَ لَفْظَةٌ ... لِغَيْرِكَ إِلَّا قُلْتُ قَدْ سَمِعَانِي

وَلَا خَطَرَتْ مِنْ ذِكْرِ غَيْرِكَ خَطْرَةٌ ... عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا عَرَّجَا بِعَنَانِي

إِذَا مَا تَسَلَّى الْقَاعِدُونَ عَلَى الْهَوَى ... بِذِكْرِ فُلَانٍ أَوْ كَلَامْ فُلَانِ

وَجَدْتُ الَّذِي يُسْلِي سِوَايَ يَشُوقُنِي ... إِلَى قُرْبِكُمْ حَتَّى أَمَلَّ مَكَانِي

وَإِخْوَانِ صِدْقٍ قَدْ سَئِمْتُ لِقَاءَهُمْ ... وَغَضَضْتُ طَرْفِي عَنْهُمُ وَلِسَانِي

وَمَا الْبَعْضُ أَسْلَى عَنْهُمُ، غَيْرَ أَنَّنِي ... أَرَاكَ عَلَى كُلِّ الْجِهَاتِ تَرَانِي

انْتَهَى مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ - فَسَحَ اللهُ فِي مُدَّتِهِ - مِنْ هَذَا الْكَلَامِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

(بَلَغَ مُقَابَلَةً عَلَى أَصْلٍ مَقْرُوءٍ عَلَى الْمُؤَلِّفِ وَعَلَيْهِ خَطُّهُ رَحِمَهُ اللهُ)

بحمد الله تعالى

.....

.....

.....

.....

.....

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

فائدة: قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

« لَيْسَ عَمَلٌ بَعْدَ الْفَرَائِضِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ ».

١٤٣٧هـ

متون

متن

التَّدْمُرِيَّة

تَحْقِيقُ الإِثْبَاتِ لِلأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ
وَحَقِيقَةُ الجمعِ بَيْنَ القَدَرِ وَالشَّرْعِ

تأليف

شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

رَحِمَهُ اللهُ تعالى

(٦٦١-٧٢٨هـ)

(بدايةً من القاعدة السَّابعة وحتَّى نهاية المتن)

(شَرح وتَعليق)

فضيلة الشَّيخ / عايد بن خليف الشمري حفظه الله تعالى

تنبيه: بدأ الشَّرح لمتن «العقيدة التَّدمرية» في «الدَّورة العلمية الثَّانية عشرة» عام ١٤٣٥هـ
وللاستماع للدُّروس السَّابقة يسرُّنا زيارتكم لموقع جامع عُتبة بن غَزوان (قسم الصَّوتيات)
على الرَّابط: /http://utbah.athaar.org

الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ

أَنْ يُقَالَ: إِنَّ كَثِيرًا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ السَّمْعُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَيْضًا، وَالْقُرْآنُ يُبَيِّنُ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ الْعَقْلُ، وَيُرْشِدُ إِلَيْهِ وَيُنَبِّهُ عَلَيْهِ؛ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، فَإِنَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بَيَّنَ مِنْ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ= مَا أَرْشَدَ الْعِبَادَ إِلَيْهِ وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ، كَمَا بَيَّنَ أَيْضًا مَا دَلَّ عَلَى نُبُوَّةِ أَنْبِيَائِهِ، وَمَا دَلَّ عَلَى الْمَعَادِ وَإِمْكَانِهِ.

فَهَذِهِ الْمَطَالِبُ هِيَ شَرْعِيَّةٌ مِنْ جِهَتَيْنِ: مِنْ جِهَةِ أَنَّ الشَّارِعَ أَخْبَرَ بِهَا، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ بَيَّنَ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَيْهَا.

- وَالْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ فِي الْقُرْآنِ هِيَ أَقْيِسَةٌ عَقْلِيَّةٌ، وَقَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ-.

وَهِيَ أَيْضًا عَقْلِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَيْضًا.

وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يُسَمِّي هَذِهِ «الْأُصُولُ الْعَقْلِيَّةُ» لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهَا لَا تُعْلَمُ إِلَّا بِالْعَقْلِ فَقَطْ، فَإِنَّ السَّمْعَ هُوَ مُجَرَّدُ إِخْبَارِ الصَّادِقِ، وَخَبَرُ الصَّادِقِ -الَّذِي هُوَ النَّبِيُّ- لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْأُصُولِ بِالْعَقْلِ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ يَتَنَازَعُونَ فِي الْأُصُولِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ عَلَيْهَا:

فَطَائِفَةٌ تَزْعُمُ: أَنَّ تَحْسِينَ الْعَقْلِ وَتَقْبِيحَهُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْأُصُولِ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ بِدُونِ ذَلِكَ، وَيَجْعَلُونَ التَّكْذِيبَ بِالْقَدَرِ مِمَّا يَنْفِيهِ الْعَقْلُ.

وَطَائِفَةٌ تَزْعُمُ: أَنَّ حُدُوثَ الْعَالَمِ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ، وَأَنَّ الْعِلْمَ بِالصَّانِعِ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ، وَإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِحُدُوثِ الْأَجْسَامِ، وَحُدُوثُهَا يُعْلَمُ إِمَّا بِحُدُوثِ الصِّفَاتِ، وَإِمَّا بِحُدُوثِ الْأَفْعَالِ الْقَائِمَةِ بِهَا، فَيَجْعَلُونَ نَفْيَ أَفْعَالِ الرَّبِّ، وَنَفْيَ صِفَاتِهِ مِنْ الْأُصُولِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ إِلَّا بِهَا.

ثُمَّ هَؤُلَاءِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى نَقِيضِ قَوْلِهِمْ، لِظَنِّهِمْ أَنَّ الْعَقْلَ عَارِضُ السَّمْعِ -وَهُوَ أَصْلُهُ- فَيَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَيْهِ، وَالسَّمْعُ إِمَّا أَنْ يُؤَوَّلَ، وَإِمَّا أَنْ يُفَوَّضَ، وَهُمْ أَيْضًا عِنْدَ التَّحْقِيقِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى وَفْقِ قَوْلِهِمْ لِمَا تَقَدَّمَ.

وَهَؤُلَاءِ يَضِلُّونَ مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا: ظَنُّهُمْ أَنَّ السَّمْعَ بِطَرِيقِ الْخَبَرِ تَارَةً، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ الْقُرْآنُ بَيَّنَ مِنْ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تُعْلَمُ بِهَا الْمَطَالِبُ الدِّينِيَّةُ مَا لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي كَلَامِ أَئِمَّةِ النَّظَرِ، فتكُونُ هَذِهِ الْمَطَالِبُ: شَرْعِيَّةً عَقْلِيَّةً.

وَمِنْهَا: ظَنُّهُمْ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إلَّا بِالطَّرِيقِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي سَلَكُوهَا، وَهُمْ مُخْطِئُونَ قَطْعًا فِي انْحِصَارِ طَرِيقِ تَصْدِيقِهِ فِيمَا ذَكَرُوهُ، فَإِنَّ طُرُقَ الْعِلْمِ بِصِدْقِ الرَّسُولِ كَثِيرَةٌ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَمِنْهَا: ظَنُّهُمْ أَنَّ تِلْكَ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكُوهَا صَحِيحَةٌ، وَقَدْ تَكُونُ بَاطِلَةً.

وَمِنْهَا: ظَنُّهُمْ أَنَّ مَا عَارَضُوا بِهِ السَّمْعَ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ، وَيَكُونُونَ غَالِطِينَ فِي ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ إذَا وُزِنَ بِالْمِيزَانِ الصَّحِيحِ وُجِدَ مَا يُعَارِضُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مِنْ الْمَجْهُولَاتِ؛ لَا مِنْ الْمَعْقُولَاتِ، وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مَا قَدْ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، كَمَا يُعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ، وَأَنَّهُ حَيٌّ؛ كَمَا أَرْشَدَ إلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ:﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك: ١٤] .

وَقَدْ اتَّفَقَ النُّظَّارُ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ عَلَى أَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ-عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ-أَنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ مُرِيدٌ، وَكَذَلِكَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ يَثْبُتُ بِالْعَقْلِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُم، بَلْ وَكَذَلِكَ الْحُبُّ وَالرِّضَا وَالْغَضَبُ يُمْكِنُ إثْبَاتُهُ بِالْعَقْلِ، وَكَذَلِكَ عُلُوُّهُ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَمُبَايَنَتُهُ لَهَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، كَمَا أَثْبَتَهُ بِذَلِكَ الْأَئِمَّةُ، مِثْلُ: أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ ، وَمِثْلُ: عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَكِّيِّ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كُلَّاب.

بَلْ وَكَذَلِكَ إمْكَانُ الرُّؤْيَةِ يَثْبُتُ بِالْعَقْلِ، لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ تَصِحُّ رُؤْيَتُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ، وَهَذِهِ الطَّرِيقُ أَصَحُّ مِنْ تِلْكَ.

وَقَدْ يُمْكِنُ إثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ بِغَيْرِ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ، بِتَقْسِيمٍ دَائِرٍ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، كَمَا يُقَالُ: إنَّ الرُّؤْيَةَ لَا تَتَوَقَّفُ إلَّا عَلَى أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ، فَإِنَّ مَا لَا يَتَوَقَّفُ إلَّا عَلَى أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ يَكُونُ الْمَوْجُودُ الْوَاجِبُ الْقَدِيمُ أَحَقَّ بِهِ مِنْ الْمُمْكِنِ الْمُحْدَثِ، وَالْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنْ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْأَئِمَّةُ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ نُظَّارِ السُّنَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَوْصُوفًا بِإِحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ لَلَزِمَ اتِّصَافُهُ بِالْأُخْرَى؛ فَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْحَيَاةِ لَوُصِفَ بِالْمَوْتِ، وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْقُدْرَةِ لَوُصِفَ بِالْعَجْزِ، وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ لَوُصِفَ بِالصَّمَمِ وَالْخَرَسِ وَالْبَكَمِ.

وَطَرْدُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُوصَفْ بِأَنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ لَكَانَ دَاخِلًا فِيهِ، فَسَلْبُ إحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ عَنْهُ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الْأُخْرَى، وَتِلْكَ صِفَةُ نَقْصٍ يُنَزَّهُ عَنْهَا الْكَامِلُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ، فَتَنْزِيهُ الْخَالِقِ عَنْهَا أَوْلَى.

وَهَذِهِ الطَّرِيقُ غَيْرُ قَوْلِنَا: إنَّ هَذِهِ صِفَاتُ كَمَالٍ يَتَّصِفُ بِهَا الْمَخْلُوقُ فَالْخَالِقُ أَوْلَى، فَإِنَّ طَرِيقَ إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِأَنْفُسِهَا مُغَايِرٌ لِطَرِيقِ إثْبَاتِهَا بِنَفْيِ مَا يُنَاقِضُهَا.

وَقَدْ اعْتَرَضَ طَائِفَةٌ مِنْ النُّفَاةِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ بِاعْتِرَاضِ مَشْهُورٍ لَبَّسُوا بِهِ عَلَى النَّاسِ؛ حَتَّى صَارَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ يَظُنُّ صِحَّتَهُ وَيُضَعِّفُ الْإِثْبَاتَ بِهِ، مِثْلَ مَا فَعَلَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ النُّظَّارِ حَتَّى الآمِدِي وَأَمْثَالِهِ، مَعَ أَنَّهُ أَصْلُ قَوْلِ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الجهمية.

فَقَالُوا: الْقَوْلُ بِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ؛ كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ، مَعَ كَوْنِهِ حَيًّا لَكَانَ مُتَّصِفًا بِمَا يُقَابِلُهَا =فَالتَّحْقِيقُ فِيهِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى بَيَانِ حَقِيقَةِ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَبَيَانُ أَقْسَامِهِمَا.

فَنَقُولُ: أَمَّا الْمُتَقَابِلَانِ: فَمَا لَا يَجْتَمِعَانِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ إمَّا أَلَّا يَصِحَّ اجْتِمَاعُهُمَا فِي الصِّدْقِ وَلَا فِي الْكَذِبِ، أَوْ يَصِحَّ ذَلِكَ فِي أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ.

فَالأَوَّل هُمَا الْمُتَقَابِلَانِ بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَهُوَ تَقَابُلُ التَّنَاقُضِ؛ وَالتَّنَاقُضُ هُوَ اخْتِلَافُ الْقَضِيَّتَيْنِ بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ عَلَى وَجْهٍ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الصِّدْقِ وَلَا فِي الْكَذِبِ لِذَاتَيْهِمَا؛ كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ حَيَوَانٌ، زَيْدٌ لَيْسَ بِحَيَوَانٍ، وَمِنْ خَاصَّيَّتِهِ اسْتِحَالَةِ اجْتِمَاعِ طَرَفَيْهِ فِي الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَأَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَلَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ إلى الآخر مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا يَصِحُّ اجْتِمَاعُهُمَا فِي الصِّدْقِ وَلَا فِي الْكَذِبِ؛ إذْ كَوْنُ الْوُجُودِ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ وَمُمْكِنًا بِنَفْسِهِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ.

فَإِذَا جَعَلْتُمْ هَذَا التَّقْسِيمَ وَهُمَا النَّقِيضَانِ مَا لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ، فَهَذَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ، وَلَيْسَ هُمَا السَّلْبُ وَالْإِيجَابُ، فَلَا يَصِحُّ حَصْرُ النَّقِيضَيْنِ - اللَّذَيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ - فِي السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ.

وَحِينَئِذٍ فَقَدْ ثَبَتَ وَصْفَانِ: شَيْئَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ؛ وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ.

وَعَلَى هَذَا فَمَنْ جَعَلَ الْمَوْتَ مَعْنًى وُجُودِيًّا، فَقَدْ يَقُولُ: إنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ لَا يَخْلُو مِنْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ وَالْجَهْلُ وَالصَّمَمُ وَالْبَكَمُ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: هَذَا الْقَسِيمُ يَتَدَاخَلُ؛ فَإِنَّ الْعَدَمَ وَالْمَلَكَةَ يَدْخُلُ فِي السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَغَايَتُهُ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْهُ، والمتضايفان يَدْخُلَانِ فِي الْمُتَضَادَّيْنِ، وَإِنَّمَا هُمَا نَوْعٌ مِنْهُ.

فَإِنْ قَالَ: أَعْنِي بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ: مَا لَا يَدْخُلُ فِيهِ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ، وَهُوَ أَنْ يُسْلَبَ عَنْ الشَّيْءِ مَا لَيْسَ بِقَابِلٍ لَهُ، وَلِهَذَا جُعِلَ مِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّهُ لَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ طَرَفَيْهِ إلَى الآخِرِ.

قِيلَ لَهُ: عَنْ هَذَا جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ غَايَةَ هَذَا أَنَّ السَّلْبَ يَنْقَسِمُ إِلَى نَوْعَيْنِ: أَحَدُهُمَا: سَلْبُ مَا يُمْكِنُ اتِّصَافُ الشَّيْءِ بِهِ، وَالثَّانِي: سَلْبُ مَا لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِهِ.

وَيُقَابِلُ الْأَوَّلُ إِثْبَاتُ مَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ وَلَا يَجِبُ، وَالثَّانِي : إِثْبَاتُ مَا يَجِبُ اتِّصَافُهُ بِهِ؛ فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ سَلْبُ الْمُمْتَنِعِ وَإِثْبَاتُ الْوَاجِبِ، كَقَوْلِنَا زَيْدٌ حَيَوَانٌ، فَإِنَّ هَذَا إِثْبَاتٌ وَاجِبٌ، وَزَيْدٌ لَيْسَ بِحَجَرٍ، فَإِنَّ هَذَا سَلْبٌ مُمْتَنِعٌ.

وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، فَالْمُمْكِنَاتُ الَّتِي تَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ، كَقَوْلِنَا: الْمُثَلَّثُ إِمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ، يَكُونُ مِنْ قِسْمِ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْقِسْمَ يَخْلُو فِيهِ الْمَوْصُوفُ الْوَاحِدُ عَن الْمُتَقَابِلَيْنِ جَمِيعًا، وَلَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنْ الْمُمْكِنَاتِ عَنْ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، فَصِفَاتُ الرَّبِّ كُلُّهَا وَاجِبَةٌ لَهُ، فَإِذَا قِيلَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَيًّا أَوْ عَلِيمًا أَوْ سَمِيعًا أَوْ بَصِيرًا أَوْ مُتَكَلِّمًا أَوْ لَا يَكُونُ =كَانَ مِثْلُ قَوْلِنَا: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ. وَهَذَا مُتَقَابِلٌ تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، فَيَكُونُ الْآخَرُ مِثْلُهُ، وَبِهَذَا يَحْصُلُ الْمَقْصُودُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا لَا يَصِحُّ حَتَّى يُعْلَمَ إِمْكَانُ قَبُولِهِ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

قِيلَ لَهُ: هَذَا إِنَّمَا اشْتُرِطَ فِيمَا أَمْكَنَ أَنْ يَثْبُتَ لَهُ وَيَزُولَ كَالْحَيَوَانِ؛ فَأَمَّا الرَّبُّ تَعَالَى فَإِنَّهُ بِتَقْدِيرِ ثُبُوتِهَا لَهُ فَهِيَ وَاجِبَةٌ، ضَرُورَة أَنَّه لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِهَا وَبِعَدَمِهَا بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ تَارَةً حَيًّا وَتَارَةً مَيِّتًا، وَتَارَةً أَصَمَّ وَتَارَةً سَمِيعًا، وَهَذَا يُوجِبُ اتِّصَافُهُ بِالنَّقَائِضِ؛ وَذَلِكَ مُنْتَفٍ قَطْعًا.

بِخِلَافِ مَنْ نَفَاهَا، وَقَالَ: إِنَّ نَفْيَهَا لَيْسَ بِنَقْصٍ، لِظَنِّهِ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَا، فَإِنَّ مَنْ قَالَ هَذَا لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ مَعَ إِمْكَانِ الِاتِّصَافِ بِهَا لَا يَكُونُ نَفْيُهَا نَقْصًا. فَإِنَّ فَسَادَ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ.

وَقِيلَ لَهُ أَيْضًا: أَنْتَ فِي تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، إِنْ اشْتَرَطْت الْعِلْمَ بِإِمْكَانِ الطَّرَفَيْنِ لَمْ يَصِحَّ أَنْ تَقُولَ: وَاجِبُ الْوُجُودِ إِمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ، وَالْمُمْتَنِعُ الْوُجُودِ إِمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ؛ لِأَنَّ أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ هُنَا مَعْلُومُ الْوُجُودِ، وَالْآخَرَ مَعْلُومُ الِامْتِنَاعِ.

وَإِنْ اشْتَرَطْت الْعِلْمَ بِإِمْكَانِ أَحَدِهِمَا، صَحَّ أَنْ تَقُولَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَيًّا وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ إِنْ كَانَ مُمْكِنًا صَحَّ التَّقْسِيمُ، وَإِنْ كَانَ مُمْتَنِعًا كَانَ الْإِثْبَاتُ وَاجِبًا، وَحَصَلَ الْمَقْصُودُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا يُفِيدُ أَنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ يُقَابِلُ السَّلْبَ وَالْإِيجَابَ، وَنَحْنُ نُسَلِّمُ ذَلِكَ، كَمَا ذُكِرَ فِي الِاعْتِرَاضِ؛ لَكِنَّ غَايَتَهُ أَنَّهُ إِمَّا سَمِيعٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِسَمِيعٍ، وَإِمَّا بَصِيرٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِبَصِيرٍ، وَالْمُنَازِعُ يَخْتَارُ النَّفْيَ.

فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ: فَالْمُثْبَتُ وَاجِبٌ، وَالْمَسْلُوبُ مُمْتَنِعٌ، فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَاتُ وَاجِبَةً لَهُ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مُمْتَنِعَةً عَلَيْهِ، وَالْقَوْلُ بِالِامْتِنَاعِ لَا وَجْهَ لَهُ؛ إِذْ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بِوَجْهٍ.

بَلْ قَدْ يُقَالُ: نَحْنُ نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ بُطْلَانَ الِامْتِنَاعِ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى امْتِنَاعِ ذَلِكَ إِلَّا بِمَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى إِبْطَالِ أَصْلِ الصِّفَاتِ، وَقَدْ عُلِمَ فَسَادُ ذَلِكَ، وَحِينَئِذٍ فَيَجِبُ الْقَوْلُ بِوُجُوبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يُجْعَلَ طَرِيقَةً مُسْتَقِلَّةً فِي إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ، فَإِنَّهَا إِمَّا وَاجِبَةٌ لَهُ، وَإِمَّا مُمْتَنِعَةٌ عَلَيْهِ، وَالثَّانِي بَاطِلٌ فَتَعَيَّنَ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّ كَوْنَهُ قَابِلًا لَهَا خَالِيًا عَنْهَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا، وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ، وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ مَعْرُوفَةٌ لِمَنْ سَلَكَهَا مِنْ النُّظَّارِ.

الْجَوَابُ الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: فَعَلَى هَذَا إِذَا قُلْنَا: زَيْدٌ إِمَّا عَاقِلٌ وَإِمَّا غَيْرُ عَاقِلٍ، وَإِمَّا عَالِمٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِعَالِمٍ، وَإِمَّا حَيٌّ وَإِمَّا غَيْرُ حَيٍّ، وَإِمَّا نَاطِقٌ وَإِمَّا غَيْرُ نَاطِقٍ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ سَلْبُ الصِّفَةِ عَنْ مَحَلٍّ قَابِلٍ لَهَا =لَمْ يَكُنْ هَذَا دَاخِلًا فِي قِسْمِ تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ وَخِلَافُ اتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ وَخِلَافُ مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَنْطِقِ وَغَيْرِهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْقَضَايَا تَتَنَاقَضُ بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ عَلَى وَجْهٍ يَلْزَمُ مِنْ صِدْقِ إِحْدَاهِمَا كَذِبُ الْأُخْرَى، فَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، فَهَذِهِ شُرُوطُ التَّنَاقُضِ مَوْجُودٌ فِيهَا.

وَغَايَةُ فِرَقِهِمْ أَنْ يَقُولُوا: إِذَا قُلْنَا: هُوَ إِمَّا بَصِيرٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِبَصِيرٍ، كَانَ إِيجَابًا وَسَلْبًا، وَإِذَا قُلْنَا: إِمَّا بَصِيرٌ وَإِمَّا أَعْمَى، كَانَ مَلَكَةً وَعَدَمًا.

وَهَذِا مُنَازَعَةٌ لَفْظِيَّةٌ، وَإِلَّا فَالْمَعْنَى فِي الْمَوْضِعَيْنِ سَوَاءٌ، فَعُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ نَوْعٌ مِنْ تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَهُمْ فِي حَدِّ ذَلِكَ التَّقَابُلِ: أَنَّهُ لَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ إِلَى الْآخَرِ، فَإِنَّ الِاسْتِحَالَةَ هُنَا مُمْكِنَةٌ كَإِمْكَانِهَا إِذَا عُبِّرَ بِلَفْظِ «الْعَمَى».

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ يُقَالَ : التَّقْسِيمُ الْحَاصِرُ أَنْ يُقَالَ: الْمُتَقَابِلَانِ إِمَّا أَنْ يَخْتَلِفَا بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَخْتَلِفَا بِذَلِكَ، بَلْ يَكُونَانِ إِيجَابَيْنِ أَوْ سَلْبَيْنِ، فَالْأَوَّلُ هُوَ النَّقِيضَانِ ، وَالثَّانِي إِمَّا أَنْ يُمْكِنَ خُلُوُّ الْمَحَلِّ عَنْهُمَا، وَإِمَّا أَنْ لَا يُمْكِنَ، وَالْأَوَّلُ: هُمَا الضِّدَّانِ كَالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ، وَالثَّانِي: هُمَا فِي مَعْنَى النَّقِيضَيْنِ وَإِنْ كَانَا ثُبُوتَيْنِ كَالْوُجُوبِ وَالْإِمْكَانِ، وَالْحُدُوثِ وَالْقِدَمِ، وَالْقِيَامِ بِالنَّفْسِ وَالْقِيَامِ بِالْغَيْرِ، وَالْمُبَايَنَةِ وَالْمُجَانَبَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ، وَالصَّمَمَ وَالْبَكَمَ، وَالسَّمْعَ، لَيْسَ مِمَّا إِذَا خَلَا الْمَوْصُوفُ عَنْهُمَا وُصِفَ بِوَصْف ثَالِثٍ بَيْنَهِمَا كَالْحُمْرَةِ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ، فَعُلِمَ أَنَّ الْمَوْصُوفَ لَا يَخْلُو عَنْ أَحَدِهِمَا فَإِذَا انْتَفَى تَعَيَّنَ الْآخَرُ.

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: الْمَحَلُّ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَنَحْوِهَا، أَنْقَصُ مِنَ الْمَحَلِّ الَّذِي يَقْبَلُ ذَلِكَ وَيَخْلُو عَنْهَا، وَلِهَذَا كَانَ الْحَجَرُ وَنَحْوُهُ أَنْقَصَ مِنَ الْحَيِّ الْأَعْمَى.

وَحِينَئِذٍ، فَإِذَا كَانَ الْبَارِئُ مُنَزَّهًا عَنْ نَفْيِ هَذِهِ الصِّفَاتِ- مَعَ قَبُولِهِ لَهَا-فَتَنْزِيهُهُ عَنِ امْتِنَاعِ قَبُولِهِ لَهَا أَوْلَى وَأَحْرَى، إِذْ بِتَقْدِيرِ قَبُولِهِ لَهَا يَمْتَنِعُ مَنْعُ الْمُتَقَابِلَيْنِ، وَاتِّصَافُهُ بِالنَّقَائِصِ مُمْتَنِعٌ، فَيَجِبُ اتِّصَافُهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَبِتَقْدِيرِ عَدَمِ قَبُولِهِ لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ لَا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَلَا بِصِفَاتِ النَّقْصِ، وَهَذَا أَشَدُّ امْتِنَاعًا، فَثَبَتَ أَنَّ اتِّصَافَهُ بِذَلِكَ مُمْكِنٌ، وَأَنَّهُ وَاجِبٌ لَهُ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْحُسْنِ.

الْوَجْهُ الْخَامِسُ: أَنْ يُقَالَ: أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ تَقَابُلَ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ فِيمَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِثُبُوت، فَإِذَا عَنَيْتُمْ بِالْإِمْكَانِ الْإِمْكَانَ الْخَارِجِيَّ، وَهُوَ أَنْ يُعْلَمَ ثُبُوتُ ذَلِكَ فِي الْخَارِجِ، كَانَ هَذَا بَاطِلًا مِن وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يُلْزِمُكُمْ أَنْ تَكُونَ الْجَامِدَاتُ لَا تُوصَفُ بِأَنَّهَا لَا حَيَّةٌ وَلَا مَيِّتَةٌ، وَلَا نَاطِقَةٌ وَلَا صَامِتَةٌ، وَهُوَ قَوْلُكُمْ، لَكِنَّ هَذَا اصْطِلَاحٌ مَحْضٌ، وَإِلَّا فَالعَرَبُ يصفون هَذِهِ الْجَمَادَاتِ بِالْمَوْتِ وَالصَّمْتِ.

وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [النحل: ٢٠ – ٢١] ، فَهَذَا فِي الْأَصْنَامِ وَهِيَ مِنَ الْجَمَادَاتِ، وَقَدْ وُصِفَتْ بِالْمَوْتِ.

وَالْعَرَبُ تُقَسِّمُ الْأَرْضَ إِلَى الْحَيَوَانِ وَالمَوَتَانِ، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْمَوَتَانُ: بِالتَّحْرِيكِ، خِلَافُ الْحَيَوَانِ، يُقَالُ: اشْتَرِ الْمَوَتَانِ، وَلَا تَشْتَرِ الْحَيَوَانَ. أَيْ: اشْتَرِ الْأَرْضَين وَالدَّوْرَ، وَلَا تَشْتَرِ الرَّقِيقَ وَالدَّوَابَّ. وَقَالُوا أَيْضًا: الْمَوَاتُ: مَا لَا رُوحَ فِيهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَذَا إِنَّمَا يُسَمَّى مَوَاتًا بِاعْتِبَارِ قَبُولِهِ لِلْحَيَاةِ، الَّتِي هِيَ إِحْيَاءُ الْأَرْضِ.

قِيلَ: وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْحَيَاةَ أَعَمُّ مِنْ حَيَاةِ الْحَيَوَانِ، وَأَنَّ الْجَمَادَ يُوصَفُ بِالْحَيَاةِ إِذَا كَانَ قَابِلًا لِلزَّرْعِ وَالْعِمَارَةِ، وَالْخَرَسُ ضِدُّ النُّطْقِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: «لَبَنٌ أَخْرَسُ». أَيْ: خَاثِرٌ لَا صَوْتَ لَهُ فِي الْإِنَاءِ، وَ «سَحَابَةٌ خَرْسَاءُ» لَيْسَ فِيهَا رَعْدٌ وَلَا بَرْقٌ، وَ «عَلَمٌ أَخْرَسُ» إِذَا لَمْ يُسْمَعْ لَهُ فِي الْجَبَلِ صَوْتُ صَدًى، وَيُقَالُ: «كَتِيبَةٌ خَرْسَاءُ»، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هِيَ الَّتِي صَمَتَتْ مِنْ كَثْرَةِ الدُّرُوعِ، لَيْسَ لَهُ فقاقع.

وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ الصَّمْتُ وَالسُّكُوتُ؛ فَإِنَّهُ يُوصَفُ بِهِ الْقَادِرُ عَلَى النُّطْقِ إِذَا تَرَكَهُ؛ بِخِلَافِ الْخَرَسِ، فَإِنَّهُ عَجْزٌ عَنْ النُّطْقِ، وَمَعَ هَذَا فَالْعَرَبُ تَقُولُ: «مَا لَهُ صَامِتٌ وَلَا نَاطِقٌ» ، فَالصَّامِتُ: الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ. وَالنَّاطِقُ: الْإِبِلُ وَالْغَنَمُ. فَالصَّامِتُ مِنْ اللَّبَنِ: الْخَاثِرُ. وَالصَّمُوت : الدِّرْعُ الَّتِي إِذَا صُبَّت لَمْ يُسْمَعْ لَهُ صَوْتٌ. وَيَقُولُونَ: دَابَّةٌ عَجْمَاءُ، وَخَرْسَاءُ، لِمَا لَا يَنْطِقُ، وَلَا يُمَكَّنُ مِنه النُّطْقُ فِي الْعَادَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **«الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ»**.

وَكَذَلِكَ فِي الْعَمَى، تَقُولُ الْعَرَبُ : عَمَى الْمَوْجُ يَعْمِي عَمْيًا، إِذَا رَمَى بِالْقَذَى وَالزَّبَدِ، و الأعميان: السَّيْلُ وَالْجَمَلُ الْهَائِجُ، وَعَمِيَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ إِذَا الْتَبَسَ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى:﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ [القصص: ٦٦].

وَهَذِهِ الْأَمْثِلَةُ قَدْ يُقَالُ فِي بَعْضِهَا: إِنَّهُ عَدَمٌ مَا يَقْبَلُ الْمَحَلَّ الِاتِّصَافَ بِهِ كَالصَّوْتِ؛ وَلَكِنْ فِيهَا مَا لَا يَقْبَلُ كَمَوْتِ الْأَصْنَامِ.

الثَّانِي: أَنَّ الْجَامِدَاتِ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ أَنْ يَخْلُقَ فِي الْجَمَادَاتِ حَيَاةً، كَمَا جَعَلَ عَصَا مُوسَى حَيَّةً تَبْلِعُ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ.

وَإِذَا فِي إِمْكَانِ الْعَادَاتِ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ عُلِمَ بِالتَّوَاتُرِ، وَأَنْتُمْ أَيْضًا قَائِلُونَ بِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ.

وَإِذَا كَانَ الْجَمَادَاتُ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِالْحَيَاةِ وَتَوَابِعِ الْحَيَاةِ ثَبَتَ أَنَّ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِذَلِكَ، فَيَكُونُ الْخَالِقُ أَوْلَى بِهَذَا الْإِمْكَانِ.

وَإِنْ عَنَيْتُمْ الْإِمْكَانَ الذِّهْنِيَّ، وَهُوَ عَدَمُ الْعِلْمِ بِالِامْتِنَاعِ، فَهَذَا حَاصِلٌ فِي حَقِّ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يُعْلَمُ امْتِنَاعُ اتِّصَافِهِ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ.

الْوَجْهُ السَّادِسُ: أَنْ يُقَالَ: هَبْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِالْإِمْكَانِ الْخَارِجِيِّ، فَإِمْكَانُ الْوَصْفِ لِلشَّيْءِ يُعْلَمُ تَارَةً بِوُجُوهِ لَهُ، أَوْ بِوُجُودِهِ لِنَظِيرِهِ، أَوْ بِوُجُودِهِ لِمَا هُوَ الشَّيْءُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ ثَابِتَةٌ لِلْمَوْجُودَاتِ الْمَخْلُوقَةِ، وَمُمْكِنٌ لَهَا، فَإِمْكَانُهَا لِلْخَالِقِ تَعَالَى أَوْلَى وَأَحْرَى؛ فَإِنَّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ، وَهُوَ قَابِلٌ لِلِاتِّصَافِ بِالصِّفَاتِ، وَإِذَا كَانَتْ مُمْكِنَةً فِي حَقِّهِ فَلَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا لَاتَّصَفَ بِأَضْدَادِهَا.

الْوَجْهُ السَّابِعُ: أَنْ يُقَالَ: مُجَرَّدُ سَلْبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ نَقْصٌ لِذَاتِهِ، سَوَاءٌ سُمِّيَتْ عَمًى وَصَمَمًا وَبَكَمًا، أَوْ لَمْ تُسَمَّ، وَالْعِلْمُ بِذَلِكَ ضَرُورِيٌّ، فَإِنَّا إِذَا قَدَّرْنَا مَوْجُودَيْنِ أَحَدُهُمَا يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَتَكَلَّمُ، وَالْآخَرُ لَيْسَ كَذَلِكَ، كَانَ الْأَوَّلُ أَكْمَلَ مِنْ الثَّانِي.

جامعة عنبة بن غزوان رضي الله عنه

وَلِهَذَا عَابَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَنْ عَبَدَ مَا تَنْتَفِي فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ؛ فَقَالَ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ:﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم: ٤٢] ، وَقَالَ أَيْضًا فِي قِصَّتِهِ:﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣] ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٢ – ٧٧] ، وَكَذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُوسَى فِي الْعِجْلِ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٨] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل: ٧٦] ، فَقَابَلَ بَيْنَ الْأَبْكَمِ الْعَاجِزِ وَبَيْنَ الْآمِرِ بِالْعَدْلِ، الَّذِي هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

فَصْلٌ

وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي

الأصلُ الثاني

وَهُوَ: التَّوْحِيدُ فِي الْعِبَادَاتِ، الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ جَمِيعًا =فَنَقُولُ: لَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ، وَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَقَدَّرَ الْمَقَادِيرَ وَكَتَبَهَا حَيْثُ شَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠] ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أَنَّهُ قَالَ: **«إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»**.

وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ، وَبِذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ.

وَعِبَادَتُهُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ وَالْحُبِّ لَهُ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ طَاعَتِهِ، وَمَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء: ٦٤] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ٣١] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٥] ، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ﴾ [الشورى: ١٣] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥١ – ٥٢] ، فَأَمَرَ الرُّسُلَ بِإِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَنْ لَا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: **«إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»**.

وَهَذَا الدِّينُ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ دِينًا غَيْرَهُ، لَا مِنْ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنْ الْآخَرِينَ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، قَالَ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧١-٧٢] ، وَقَالَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢] ، وَقَالَ عَنْ مُوسَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤] ، وَقَالَ فِي خَبَرِ الْمَسِيحِ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١] ، وَقَالَ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤] ، وَقَالَ عَنْ بلقيس أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] .

فَالْإِسْلَامُ يَتَضَمَّنُ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا، وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لَهُ كَانَ مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ، وَالْمُشْرِكُ بِهِ وَالْمُسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ كَافِرٌ، وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ وَحْدَهُ يَتَضَمَّنُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ، وَطَاعَتَهُ وَحْدَهُ.

وَهَذَا دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ، وَذَلِكَ إنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَإِذَا أَمَرَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ، ثُمَّ أَمَرَنَا ثَانِيًا بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ = كَانَ كُلٌّ مِنْ الْفِعْلَيْنِ حِينَ أَمَرَ بِهِ دَاخِلًا فِي الْإِسْلَامِ، فَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ لَهُ فِي الْفِعْلَيْنِ؛ وَإِنَّمَا تَنَوَّعَ بَعْضِ صُوَرِ الْفِعْلِ وَهُوَ وِجْهَةُ الْمُصَلَّى، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ دِينُهُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ الشِّرْعَةُ وَالْمِنْهَاجُ وَالْوِجْهَةُ وَالْمَنْسَكُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ وَاحِدًا، كَمَا لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ فِي شِرْعَةِ الرَّسُولِ الْوَاحِدِ.

وَاَللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ أَنَّ أَوَّلَهُمْ يُبَشِّرُ بِآخِرِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ، وَآخِرَهُمْ يُصَدِّقُ بِأَوَّلِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١] ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: «لَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ نَبِيًّا إلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ». وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وَجَعَلَ الْإِيمَانَ بِهِم مُتَلَازِمًا، وَكَفَّرَ مَنْ قَالَ: إنَّهُ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ – ١٥١] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٨٥] ، وَقَدْ قَالَ لَنَا: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦ – ١٣٧] ، فَأَمَرَنَا أَنْ نَقُولَ: آمَنَّا بِهَذَا كُلِّهِ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، فَمَنْ بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فَلَمْ يُقِرَّ بِمَا جَاءَ بِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا مُؤْمِنًا؛ بَلْ يَكُونُ كَافِرًا وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ أَوْ مُؤْمِنٌ.

كَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] قَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: فَنَحْنُ مُسْلِمُونَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴾ [آل عمران: ٩٧] فَقَالُوا: لَا نَحُجُّ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧].

فَإِنَّ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ لَا يَتِمُّ إلَّا بِالْإِقْرَارِ بِمَا لَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ حِجِّ الْبَيْتِ؛ كَمَا قَالَ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ»** ، وَلِهَذَا لَمَّا وَقَفَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-بِعَرَفَةَ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة: ٣] .

وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أُمَّةِ مُوسَى وَعِيسَى: هَلْ هُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ لَا؟ وَهُوَ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ؛ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ الْخَاصَّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-الْمُتَضَمِّنُ لِشَرِيعَةِ الْقُرْآنِ لَيْسَ عَلَيْهِ إلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَالْإِسْلَامُ الْيَوْمَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَتَنَاوَلُ هَذَا، وَأَمَّا الْإِسْلَامُ الْعَامُّ الْمُتَنَاوِلُ لِكُلِّ شَرِيعَةٍ بَعَثَ اللَّهُ بِهَا نَبِيًّا =فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ إسْلَامَ كُلِّ أُمَّةٍ مُتَّبِعَةٍ لِنَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ.

وَرَأْسُ الْإِسْلَامِ مُطْلَقًا: شَهَادَةُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَبِهَا بُعِثَ جَمِيعُ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [النحل: ٣٦] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ الْخَلِيلِ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٨] ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٥ – ٧٧] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۚ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ [الممتحنة:

٤]، وَقَالَ:﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٥] ، وَذَكَرَ عَنْ رُسُلِهِ: كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩،٧٣،٦٥]، وَقَالَ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الكهف: ١٣ – ١٥] ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ.

وَقَدْ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ الشِّرْكَ بِالْمَلَائِكَةِ، وَالشِّرْكَ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَالشِّرْكَ بِالْكَوَاكِبِ، وَالشِّرْكَ بِالْأَصْنَامِ، وَأَصْلُ الشِّرْكِ: الشِّرْكُ بِالشَّيْطَانِ، فَقَالَ عَنْ النَّصَارَى:﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٦ – ١١٧] ، وَقَالَ تَعَالَى:﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٩ – ٨٠] ، فَبَيَّنَ أَنَّ اتِّخَاذَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا كُفْرٌ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ لَمْ يَزْعُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ أَوْالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ شَارَكُوا اللَّهَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، بَلْ وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ أَنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، بَلْ وَلَا أَثْبَتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ إلَهًا مُسَاوِيًا لِلَّهِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ، بَلْ عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ بِاَللَّهِ مُقِرُّونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ شَرِيكُهُ مِثْلَهُ، بَلْ عَامَّتُهُمْ مُقِرُّونَ أَنَّ الشَّرِيكَ مَمْلُوكٌ لَهُ سَوَاءٌ كَانَ مَلَكًا أَوْ نَبِيًّا أَوْ كَوْكَبًا أَوْ صَنَمًا؛ كَمَا كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك، إلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ»، فَأَهَلَّ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-بِالتَّوْحِيدِ، فَقَالَ: **«لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك لَبَّيْكَ، إنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَك وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَك»**.

وَقَدْ ذَكَرَ أَرْبَابُ الْمَقَالَاتِ مَا جَمَعُوا مِنْ مَقَالَاتِ الْأَوَّلِينَ والآخرين فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْآرَاءِ وَالدِّيَانَاتِ، فَلَمْ يَنْقُلُوا عَنْ أَحَدٍ إثْبَاتَ شَرِيكٍ مُشَارِكٍ لَهُ فِي خَلْقِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا مُمَاثِلَ لَهُ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ؛ بَلْ مِنْ

أَعْظَمِ مَا نَقَلُوا فِي ذَلِكَ قَوْلَ الثنوية، الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْأَصْلَيْنِ: النُّورِ والظُّلْمَةِ، وَأَنَّ النُّورَ خَلَقَ الْخَيْرَ، وَالظُّلْمَةَ خَلَقَتْ الشَّرَّ، ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُمْ فِي الظُّلْمَةِ قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا مُحْدَثَةٌ، فتكُونُ مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ. وَالثَّانِي: أَنَّهَا قَدِيمَةٌ، لَكِنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ إلَّا الشَّرَّ، فَكَانَتْ نَاقِصَةً فِي ذَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَمَفْعُولَاتِهَا عَنْ النُّورِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ إقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْمَخْلُوقَاتِ مَا بَيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر: ٣٨] ، وَقَالَ تَعَالَى:﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ إلَى قَوْلِهِ:﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ – ٩١] ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وَبِهَذَا وَغَيْرِهِ يُعْرَفُ مَا وَقَعَ مِنْ الْغَلَطِ فِي مُسَمَّى «التَّوْحِيدِ»، فَإِنَّ عَامَّةَ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ يُقَرِّرُونَ التَّوْحِيدَ فِي كُتُبِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ= غَايَتُهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا التَّوْحِيدَ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ، فَيَقُولُونَ: هُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا قَسِيمَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا شَبِيهَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَرُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ الثَّالِثُ، وَهُوَ «تَوْحِيدُ الْأَفْعَالِ»، وَهُوَ أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ، وَهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ دَلَالَةِ التَّمَانُعِ وَغَيْرِهَا، وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الْمَطْلُوبُ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِنَا: «لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ»، حَتَّى قَدْ يَجْعَلُوا مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ: الْقُدْرَةَ عَلَى الِاخْتِرَاعِ.

جامع عقبة بن عزوان رضي الله عنه

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْعَرَبِ الَّذِينَ بُعِثَ إلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أَوَّلًا = لَمْ يَكُونُوا يُخَالِفُونَهُ فِي هَذَا، بَلْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إنَّهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالْقَدَرِ أَيْضًا، وَهُمْ مَعَ هَذَا مُشْرِكُونَ.

وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مَنْ يُنَازِعُ فِي أَصْلِ هَذَا الشِّرْكِ؛ وَلَكِنْ غَايَةُ مَا يُقَالُ: إنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْمَوْجُودَاتِ خَلْقًا لِغَيْرِ اللَّهِ، كَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْعِبَادِ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِنْ قَالُوا: إنَّهُمْ خَلَقُوا أَفْعَالَهُمْ.

وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْفَلْسَفَةِ وَالطَّبْعِ وَالنُّجُومِ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَنَّ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ مُبْدِعَةٌ لِبَعْضِ الْأُمُورِ، فَهُمْ مَعَ الْإِقْرَارِ بِالصَّانِعِ يَجْعَلُونَ هَذِهِ الْفَاعِلَاتِ مَصْنُوعَةً مَخْلُوقَةً، لَا يَقُولُونَ إنَّهَا غَنِيَّةٌ عَنْ الْخَالِقِ، مُشَارِكَةٌ لَهُ فِي الْخَلْقِ.

فَأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ الصَّانِعَ فَذَلِكَ جَاحِدٌ مُعَطِّلٌ لِلصَّانِعِ، كَالْقَوْلِ الَّذِي أَظْهَرَه فِرْعَوْنُ، وَالْكَلَامُ الْآنَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْمُقِرِّينَ بِوُجُودِهِ، فَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ الَّذِي قَرَّرُوهُ لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، بَلْ يُقِرُّونَ بِهِ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، كَمَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ، وَكَمَا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ.

وَكَذَلِكَ النَّوْعُ الثَّانِي، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: لَا شَبِيهَ لَهُ فِي صِفَاتِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأُمَمِ مَنْ أَثْبَتَ قَدِيمًا مُمَاثِلًا لَهُ فِي ذَاتِهِ سَوَاءٌ قَالَ: إِنَّهُ يُشَارِكُهُ. أَوْ قَالَ: إِنَّهُ لَا فِعْلَ لَهُ. بَلْ مَنْ شَبَّهَ بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَإِنَّمَا يُشَبِّهُهُ بِهِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ.

وَقَدْ عُلِمَ بِالْعَقْلِ امْتِنَاعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، يُشَارِكُهُ فِيمَا يَجِبُ أَوْ يَجُوزُ أَوْ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْجَمْعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَعُلِمَ أَيْضًا بِالْعَقْلِ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودَيْنِ قَائِمَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا فَلَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مِنْ قَدْرٍ مُشْتَرَكٍ، كَاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى «الْوُجُودِ» وَ «الْقِيَامِ بِالنَّفْسِ» وَ «الذَّاتِ» وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِنَّ نَفْيَ ذَلِكَ يَقْتَضِي التَّعْطِيلَ الْمَحْضَ، وَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّ الجهمية مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، أَدْرَجُوا نَفْيَ الصِّفَاتِ فِي مُسَمَّى «التَّوْحِيدِ»، فَصَارَ مَنْ قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ عِلْمًا أَوْ قُدْرَةً، أَوْ إِنَّهُ يُرَى فِي الْآخِرَةِ، أَوْ إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ مُشَبِّهٌ لَيْسَ بِمُوَحِّدٍ.

وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الجهمية والْفَلَاسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ فَنَفَوْا أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَى، وَقَالُوا: مَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، فَهُوَ مُشَبِّهٌ لَيْسَ بِمُوَحِّدٍ.

وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الْغُلَاةِ، وَقَالُوا: لَا يُوصَفُ بِالنَّفْيِ وَلَا الْإِثْبَاتِ؛ لِأَنَّ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا تَشْبِيهًا لَهُ.

وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ وَقَعُوا مِنْ جِنْسِ التَّشْبِيهِ فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ فِرَارًا مِنْ تَشْبِيهِهِمْ -بِزَعْمِهِمْ- لَهُ بِالْأَحْيَاءِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةَ لِلَّهِ لَا تَثْبُتُ لَهُ عَلَى حَدِّ مَا يَثْبُتُ لِمَخْلُوقٍ أَصْلًا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ إِثْبَاتِ الذَّاتِ وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي إِثْبَاتِ الذَّاتِ إِثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لِلذَّوَاتِ= لَمْ يَكُنْ فِي إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ إِثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَصَارَ هَؤُلَاءِ الجهمية الْمُعَطِّلَةُ يَجْعَلُونَ هَذَا تَوْحِيدًا؛ وَيَجْعَلُونَ مُقَابِلَ ذَلِكَ: التَّشْبِيهَ، وَيُسَمُّونَ نُفُوسَهُم: «الْمُوَحِّدِينَ».

وَكَذَلِكَ النَّوْعُ الثَّالِثُ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: هُوَ وَاحِدٌ لَا قَسِيمَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، أَوْ لَا جُزْءَ لَهُ، أَوْ لَا بَعْضَ لَهُ= لَفْظٌ مُجْمَلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ؛ فَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَفَرَّقَ، أَوْ يَتَجَزَّأَ، أَوْ يَكُونَ قَدْ رُكِّبَ مِنْ أَجْزَاءٍ؛ لَكِنَّهُمْ يُدْرِجُونَ فِي هَذَا اللَّفْظِ: نَفْيَ عُلُوِّهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَمُبَايَنَتَهُ لِخَلْقِهِ، وَامْتِيَازَهُ عَنْهُمْ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِي الْمُسْتَلْزِمَةِ لِنَفْيِهِ وَتَعْطِيلِهِ، وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ مِنَ التَّوْحِيدِ.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَا يُسَمُّونَهُ «تَوْحِيدًا» فِيهِ مَا هُوَ حَقٌّ، وَفِيهِ مَا هُوَ بَاطِلٌ، وَلَوْ كَانَ جَمِيعُهُ حَقًّا؛ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ إِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَخْرُجُوا فِيه مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي وَصَفَهُمْ اللهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ، وَقَاتَلَهُمْ عَلَيْهِ الرَّسُولُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِـ «الْإِلَهِ» هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ، كَمَا ظَنَّهُ مَنْ ظَنَّهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ، حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ، وَأَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ دُونَ غَيْرِهِ فَقَدْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِهَذَا وَهُمْ مُشْرِكُونَ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ. بَلْ الْإِلَهُ الْحَقُّ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِأَنْ يُعْبَدَ فَهُوَ إِلَهٌ بِمَعْنَى مَأْلُوهٍ ؛ لَا إِلَهَ بِمَعْنَى آلِهٍ ؛ وَالتَّوْحِيدُ أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْإِشْرَاكُ أَنْ يُجْعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ.

وَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ غَايَةَ مَا يُقَرِّرُهُ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ؛ أَهْلُ الْإِثْبَاتِ لِلْقَدَرِ، الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى السُّنَّةِ، إِنَّمَا هُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ هَذَا فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِذَلِكَ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ= فَكَذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ، الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ، غَايَةُ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ التَّوْحِيدِ هُوَ شُهُودُ هَذَا التَّوْحِيدِ، وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ، لَا سِيَّمَا إِذَا غَابَ الْعَارِفُ بِمَوْجُودِهِ عَنْ وَجُودِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَدَخَلَ فِي فَنَاءِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، بِحَيْثُ يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ، فَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا هُوَ تَحْقِيقُ مَا أَقَرَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ التَّوْحِيدِ، وَلَا يَصِيرُ الرَّجُلُ بِمُجَرَّدِ هَذَا التَّوْحِيدِ مُسْلِمًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا لِلَّهِ أَوْ مِنْ سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ.

وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمَعْرِفَةِ يُقَرُّونَ هَذَا التَّوْحِيدَ مَعَ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، فَيَفْنَوْنَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ إِثْبَاتِ الْخَالِقِ لِلْعَالَمِ الْمُبَايِنِ لِمَخْلُوقَاتِهِ.

وَآخَرُونَ يَضُمُّونَ هَذَا إِلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ، فَيَدْخُلُونَ فِي التَّعْطِيلِ مَعَ هَذَا، وَهَذَا شَرٌّ مِنْ حَالِ كَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ.

وَكَانَ جَهْمٌ يَنْفِي الصِّفَاتِ، وَيَقُولُ بِالْجَبْرِ، فَهَذَا تَحْقِيقُ قَوْلِ جَهْمٍ، لَكِنَّهُ إِذَا أَثْبَتَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ= فَارَقَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، لَكِنَّ جَهْمًا وَمَنْ اتَّبَعَهُ يَقُولُ بِالْإِرْجَاءِ؛ فَيَضْعُفُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عِنْدَهُ.

والنَّجَّارِية والضِّرارية وَغَيْرُهُمْ يَقْرَبُونَ مِنْ جَهْمٍ فِي مَسَائِلِ الْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ، مَعَ مُقَارَبَتِهِمْ لَهُ أَيْضًا فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ.

والكُلَّابية وَالْأَشْعَرِيَّةُ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ لِلَّهِ الصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةَ، وَأَئِمَّتُهُمْ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةَ فِي الْجُمْلَةِ، كَمَا فُصِّلَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَأَمَّا فِي بَابِ الْقَدَرِ وَمَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ فَأَقْوَالُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ.

والكُلَّابية هُمْ أَتْبَاعُ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كُلَّابٍ، الَّذِي سَلَكَ الْأَشْعَرِيُّ خَلْفَهُ، وَأَصْحَابُ ابْنُ كُلَّابٍ كَالْحَارِثِ الْمُحَاسَبِيِّ، وَأَبِي الْعَبَّاسِ القلانسي وَنَحْوِهِمَا =خَيْرٌ مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي هَذَا وَهَذَا، فَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ إلَى السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَقْرَبَ كَانَ قَوْلُهُ أَعْلَى وَأَفْضَلَ.

والكَرَّامِية قَوْلُهُمْ فِي الْإِيمَانِ قَوْلٌ مُنْكَرٌ لَمْ يَسْبِقْهُمْ إلَيْهِ أَحَدٌ؛ حَيْثُ جَعَلُوا الْإِيمَانَ قَوْلَ اللِّسَانِ، وَإِنْ كَانَ مَعَ عَدَمِ تَصْدِيقِ الْقَلْبِ، فَيَجْعَلُونَ الْمُنَافِقَ مُؤْمِنًا؛ لَكِنَّهُ يَخْلُدُ فِي النَّارِ، فَخَالَفُوا الْجَمَاعَةَ فِي الِاسْمِ دُونَ الْحُكْمِ. وَأَمَّا فِي الصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ وَالْوَعِيدِ= فَهُمْ أَشْبَهُ مِنْ أَكْثَرِ طَوَائِفِ الْكَلَامِ الَّتِي فِي أَقْوَالِهَا مُخَالَفَةٌ لِلسُّنَّةِ.

وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَهُمْ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ، وَيُقَارِبُونَ قَوْلَ جَهْمٍ، لَكِنَّهُمْ يَنْفُونَ الْقَدَرَ؛ فَهُمْ وَإِنْ عَظَّمُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ؛ وَغَلَوْا فِيهِ؛ فَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ، فَفِيهِمْ نَوْعٌ مِنْ الشِّرْكِ مِنْ هَذَا الْبَابِ.

وَالْإِقْرَارُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، مَعَ إنْكَارِ الْقَدَرِ= خَيْرٌ مِنْ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ مَعَ إنْكَارِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَنْ يَنْفِي الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ، وَكَانَ قَدْ نَبَغَ فِيهِمْ الْقَدَرِيَّةُ، كَمَا نَبَغَ فِيهِمْ الْخَوَارِجُ الحرورية، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْ الْبِدَعِ أَوَّلًا مَا كَانَ أَخْف، وَكُلَّمَا ضَعُفَ مَنْ يَقُومُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ قَوِيَتْ الْبِدْعَةُ.

فَهَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفُونَ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ مَعَ إعْرَاضِهِمْ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ =شَرٌّ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ، أُولَئِكَ يُشَبَّهُونَ بِالْمَجُوسِ، وَهَؤُلَاءِ يُشَبَّهُونَ بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وَالْمُشْرِكُونَ شَرٌّ مِنْ الْمَجُوسِ.

فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ، عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَهُ؛ فَإِنَّهُ أَصْلُ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ أَصْلُ الْإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بالوحدانية وَالرِّسَالَةِ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

وَقَدْ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فِي الْإِخْلَالِ بِحَقِيقَةِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ، أَوْ أَحَدِهِمَا، مَعَ ظَنِّهِ أَنَّهُ فِي غَايَةِ التَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَإِقْرَارُ الْمَرْءِ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ = لَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ إقْرَارُهُ بِأَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ إلَّا هُوَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ فَيَجِبُ تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، فَلَا بُدَّ مِنْ الْكَلَامِ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ:

(الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ)

فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ وَتَعَالَى-كَمَا تَقَدَّمَ-بِأَنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، يَدْعُونَهُمْ وَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ من دُونِ اللَّهِ قَالَ تَعَالَى:﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨] ، فَأَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ شُفَعَاءَ مُشْرِكُونَ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ مُؤْمِنِ يس:﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يس: ٢٢ – ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى:﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٤] ، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ شُفَعَائِهِمْ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ فِيهِمْ شُرَكَاءُ، وَقَالَ تَعَالَى:﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزمر: ٤٣ – ٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى:﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ ﴾ [السجدة: ٤] ، وَقَالَ تَعَالَى:﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام: ٥١].

وَقَالَ تَعَالَى:﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ – ٢٨] ، وَقَالَ تَعَالَى:﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النجم: ٢٦] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ ﴾ [سبأ: ٢٢ – ٢٣] .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٦ – ٥٧] ، قَالَت طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ: كَانَ قَوْمٌ يَدْعُونَ عُزَيْرًا وَالْمَسِيحَ وَالْمَلَائِكَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ يُبَيِّنُ فِيهَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ يَتَقَرَّبُونَ إلَى اللَّهِ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ.

وَمِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لَهُ حَقًّا لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ؛ كَالْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٢] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر: ٢] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزمر: ١١] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر: ٦٤ – ٦٦] ، وَكُلُّ مِنْ الرُّسُلِ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩،٧٣،٦٥].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي التَّوَكُّلِ: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة: ٢٣] ، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المائدة: ١١] ، وَقَالَ: ﴿ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر: ٣٨] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [التوبة: ٥٩] ، فَقَالَ فِي الْإِيتَاءِ: ﴿ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ وَقَالَ فِي التَّوَكُّلِ: ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: وَرَسُولُهُ؛ لِأَنَّ الْإِيتَاءَ هُوَ الْإِعْطَاءُ الشَّرْعِيُّ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الْإِبَاحَةَ وَالْإِحْلَالَ الَّذِي بَلَغَهُ الرَّسُولُ، فَإِنَّ الْحَلَالَ مَا حَلَّلَهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ، وَالدِّينَ مَا شَرَعَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧] . وَأَمَّا الحسب فَهُوَ الْكَافِي، وَاللَّهُ وَحْدَهُ كَافٍ عَبْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فَهُوَ وَحْدَهُ حَسْبُهُمْ كُلُّهُمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٤] ؛ أَيْ: حَسْبُك وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَك مِنْ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ اللَّهُ، فَهُوَ كَافِيكُمْ كُلُّكُمْ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ وَالْمُؤْمِنِينَ حَسْبُك، كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الغَالِطِين؛ إذْ هُوَ وَحْدَهُ كَافٍ نَبِيَّهُ وَهُوَ حَسْبُهُ، لَيْسَ مَعَهُ مَنْ يَكُونُ هُوَ وَإِيَّاهُ حسبا لِلرَّسُولِ، وَهَذَا فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: فَحَسْبُك وَالضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدٌ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ: حَسْبُك وَزَيْدًا دِرْهَمٌ، أَيْ: يَكْفِيك وَزَيْدًا جَمِيعًا دِرْهَمٌ.

وَقَالَ فِي الْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور: ٥٢] ، فَأَثْبَتَ الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، وَأَثْبَتَ الْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ نُوحٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٧ – ١٠٨] ، فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥] ، وَقَالَ الْخَلِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨١ – ٨٢] ، وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه-، أَنَّهُ قَالَ: **لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]»**. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠] ، ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤١] .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: **«مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا»** ، وَقَالَ: **«وَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ»** ، فَفِي الطَّاعَةِ: قَرَنَ اسْمَ الرَّسُولِ بِاسْمِهِ بِحَرْفِ «الْوَاوِ» ، وَفِي الْمَشِيئَةِ: أَمَرَ أَنْ يُجْعَلَ ذَلِكَ بِحَرْفِ «ثُمَّ»؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةٌ لِلَّهِ، فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَطَاعَةُ اللَّهِ طَاعَةُ الرَّسُولِ، بِخِلَافِ الْمَشِيئَةِ، فَلَيْسَتْ مَشِيئَةُ أَحَدٍ مِنْ الْعِبَادِ مَشِيئَةً لِلَّهِ، وَلَا مَشِيئَةُ اللَّهِ مُسْتَلْزِمَةً لِمَشِيئَةِ الْعِبَادِ؛ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَأْ النَّاسُ، وَمَا شَاءَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ إِنْ لَمْ يَشَأْ اللَّهُ.

(الْأَصْلُ الثَّانِي: حَقُّ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -)

فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ، وَنُطِيعَهُ، وَنَتَّبِعَهُ، وَنُرْضِيَهُ، وَنُحِبَّهُ، وَنُسَلِّمَ لِحُكْمِهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النساء: ٨٠] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾ [التوبة: ٢٤] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

فَصْلٌ

إِذَا ثَبَتَ هَذَا، فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ: بِقَضَائِهِ وَشَرْعِهِ.

وَأَهْلُ الضَّلَالِ الْخَائِضُونَ فِي الْقَدَرِ انْقَسَمُوا إلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ: مَجُوسِيَّةٍ، وَمُشْرِكِيَّةٍ، وَإِبْلِيسِيَّةٍ.

فَالْمَجُوسِيَّةُ: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ آمَنُوا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ؛ فَغُلَاتُهُمْ أَنْكَرُوا الْعِلْمَ وَالْكِتَابَ، وَمُقْتَصِدَتِهِمْ أَنْكَرُوا عُمُومَ مَشِيئَةِ اللهِ وَخَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ.

وَالْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ: الْمُشْرِكِيَّةُ، الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَأَنْكَرُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ، فَمَنْ احْتَجَّ عَلَى تَعْطِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِالْقَدَرِ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَهَذَا قَدْ كَثُرَ فِيمَنْ يَدَّعِي الْحَقِيقَةَ مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ.

وَالْفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ: الْإِبْلِيسِيَّةُ، وَهُمْ الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْأَمْرَيْنِ، لَكِنْ جَعَلُوا هَذَا تَنَاقُضًا مِنْ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَطَعَنُوا فِي حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، كَمَا يُذْكَرُ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ إبْلِيسَ مُقَدِّمِهِمْ، كَمَا نَقَلَهُ أَهْل الْمَقَالَاتِ، وَنُقِلَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَا مِمَّا يَقُولَهُ أَهْلُ الضَّلَالِ، وَأَمَّا أَهْلُ الْهُدَى وَالْفَلَاحِ فَيُؤْمِنُونَ بِهَذَا وَهَذَا، فَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَاهُ فِي إمَامٍ مُبِينٍ.

وَيَتَضَمَّنُ هَذَا الْأَصْلُ مِنْ إثْبَاتِ عِلْمِ اللَّهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَمَشِيئَتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ = مَا هُوَ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ.

وَمَعَ هَذَا لَا يُنْكِرُونَ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ الْأَسْبَابِ، الَّتِي يَخْلُقُ بِهَا الْمُسَبَّبَاتِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف: ٥٧] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦] ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَفْعَلُ بِالْأَسْبَابِ.

وَمَنْ قَالَ: إنَّهُ يَفْعَلُ عِنْدَهَا لَا بِهَا؛ فَقَدْ خَالَفَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَأَنْكَرَ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ الْقُوَى وَالطَّبَائِعِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِإِنْكَارِ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ الْقُوَى الَّتِي فِي الْحَيَوَانِ، الَّتِي يَفْعَلُ الْحَيَوَانُ بِهَا مِثْلَ قُدْرَةِ الْعَبْدِ.

كَمَا أَنَّ مَنْ جَعَلَهَا هِيَ الْمُبْدِعَةَ لِذَلِكَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، وَأَضَافَ فِعْلَهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ إِلَّا وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ فِي حُصُولِ مُسَبَّبِهِ، وَلَا بُدّ مِنْ مَانِعٍ يَمْنَعُ مُقْتَضَاهُ إِذَا لَمْ يَدْفَعْهُ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ يَسْتَقِلُّ بِفِعْلِ شَيْءٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩] ؛ أَيْ: فَتَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ وَاحِدٌ.

وَلِهَذَا مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا وَاحِدٌ، لِأَنَّ الْوَاحِدَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا وَاحِدٌ= كَانَ جَاهِلًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ وَاحِدٌ صَدَرَ عَنْهُ وَحْدَهُ شَيْءٌ-لَا وَاحِدَ وَلَا اثْنَانِ- إِلَّا اللَّهُ، الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ، فَالنَّارُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا حَرَارَةً، لَا يَحْصُلُ الْإِحْرَاقُ إِلَّا بِهَا وَبِمَحَلٍّ يَقْبَلُ الِاحْتِرَاقَ، فَإِذَا وَقَعَتْ عَلَى السمندل وَالْيَاقُوتِ وَنَحْوِهِمَا لَمْ تُحْرِقْهُمَا، وَقَدْ يُطْلَى الْجِسْمُ بِمَا يَمْنَعُ إِحْرَاقَهُ، وَالشَّمْسُ الَّتِي يَكُونُ عَنْهَا الشُّعَاعُ لَا بُدَّ مِنْ جِسْمٍ يَقْبَلُ انْعِكَاسَ الشُّعَاعِ عَلَيْهِ، فَإِذَا حَصَلَ حَاجِزٌ مِنْ سَحَابٍ أَوْ سَقْفٍ لَمْ يَحْصُلْ الشُّعَاعُ تَحْتَهُ، وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ «**الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ**» ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ مِنْ تَمَامِ التَّوْحِيدِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- : هُوَ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ وَآمَنَ بِالْقَدَرِ؛ تَمَّ تَوْحِيدُهُ، وَمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ؛ نَقَضَ تَكْذِيبُهُ تَوْحِيدَهُ.

وَلَا بُدَّ مِنْ «**الْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ**»، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، كَمَا بَعَثَ اللَّهُ بِذَلِكَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ.

وَالْإِنْسَانُ مُضْطَرٌّ إِلَى شَرْعٍ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَرَكَةٍ يَجْلِبُ بِهَا مَنْفَعَتَهُ، وَحَرَكَةٍ يَدْفَعُ بِهَا مَضَرَّتَهُ، وَالشَّرْعُ هُوَ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُ، وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَضُرُّهُ، وَهُوَ عَدْلُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَنُورُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فَلَا يُمْكِنُ لِلْآدَمِيِّينَ أَنْ يَعِيشُوا بِلَا شَرْعٍ يُمَيِّزُونَ بِهِ بَيْنَ مَا يَفْعَلُونَهُ وَيَتْرُكُونَهُ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ مُجَرَّدَ الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ؛ بَلْ الْإِنْسَانُ الْمُنْفَرِدُ لَا بُدَّ لَهُ مَنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ هَمَّامٌ حَارِثٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**» ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَةِ، فَإِذَا كَانَ لَهُ إِرَادَةٌ فَهُوَ مُتَحَرِّكٌ بِهَا، وَلَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ مَا يُرِيدُهُ، هَلْ هُوَ نَافِعٌ لَهُ أَوْ ضَارٌّ؟ وَهَلْ يُصْلِحُهُ أَوْ يُفْسِدُهُ؟.

وَهَذَا قَدْ يَعْرِفُ بَعْضَهُ النَّاسُ بِفِطْرَتِهِمْ، كَمَا يَعْرِفُونَ انْتِفَاعَهُمْ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَكَمَا يَعْرِفُونَ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ بِفِطْرَتِهِمْ، وَبَعْضُهُمْ يَعْرِفُونَهُ بِالِاسْتِدْلَالِ الَّذِي يَهْتَدُونَ بِهِ بِعُقُولِهِمْ، وَبَعْضُهُ لَا يَعْرِفُونَهُ إلَّا بِتَعْرِيفِ الرُّسُلِ وَبَيَانِهِمْ لَهُمْ، وَهِدَايَتِهِمْ إيَّاهُم.

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي أَنَّ الْأَفْعَالَ، هَلْ يُعْرَفُ حُسْنُهَا وَقَبِيحُهَا بِالْعَقْلِ؟ أَمْ لَيْسَ لَهَا حَسَنٌ وَلَا قَبِيحٌ يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ؟ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَبَيَّنَّا مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ الِاشْتِبَاهِ.

فَإِنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ كَوْنَ الْفِعْلِ يُلَائِمُ الْفَاعِلَ أَوْ يُنَافِرُهُ =يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ سَبَبًا لِمَا يُحِبُّهُ الْفَاعِلُ وَيَلْتَذُّ بِهِ، وَسَبَبًا لِمَا يُبْغِضُهُ وَيُؤْذِيه، وَهَذَا الْقَدْرُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ تَارَةً، وَبِالشَّرْعِ أُخْرَى، وَبِهِمَا جَمِيعًا أُخْرَى؛ لَكِنَّ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَمَعْرِفَةَ الْغَايَةِ الَّتِي تَكُونُ عَاقِبَةُ الْأَفْعَالِ مِنْ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ =لَا تُعْرَفُ إلَّا بِالشَّرْعِ، فَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفَاصِيلِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَمَرَتْ بِهِ مِنْ تَفَاصِيلِ الشَّرَائِعِ، لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، كَمَا أَنَّ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفْصِيلِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْلَمُونَ بِعُقُولِهِمْ جُمَلَ ذَلِكَ.

وَهَذَا التَّفْصِيلُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْإِيمَانُ، وَجَاءَ بِهِ الْكِتَابُ، هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢] ، وقَوْله تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سبأ: ٥٠]، وقَوْله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ﴾ [الأنبياء: ٤٥] .

وَلَكِنْ تَوَهَّمَتْ طَائِفَةٌ أَنَّ لِلْحُسْنِ وَالْقُبْحِ مَعْنًى غَيْرَ هَذَا، وَأَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، وَقَابَلَتْهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى ظَنَّتْ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ مِنْ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ يَخْرُجُ عَنْ هَذَا، فَكِلَا الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَثْبَتَتَا الْحُسْنَ وَالْقُبْحَ الْعَقْلِيَّيْنِ أَوْ الشَّرْعِيَّيْنِ وَأَخْرَجَتَاهُ عَنْ هَذَا الْقِسْمِ؛ غَلِطَتْ.

ثُمَّ إنَّ كِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ لَمَّا كَانَتَا تُنْكِرُ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالسُّخْطِ وَالْفَرَحِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ الْإِلَهِيَّةُ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّوَاهِدُ الْعَقْلِيَّةُ =تَنَازَعُوا بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ مَا هُوَ مِنْهُ قَبِيحٌ، هَلْ ذَلِكَ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ وَأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ قُدْرَتُهُ عَلَى مَا هُوَ قَبِيحٌ، أَوْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ لَا يَفْعَلُهُ لِمُجَرَّدِ الْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي أَثْبَتُوهُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ. وَالْقَوْلَانِ فِي الِانْحِرَافِ مِنْ جِنْسِ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ، أُولَئِكَ لَمْ يُفَرِّقُوا فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَالرَّحْمَةِ وَالْعَذَابِ؛ فَلَا جَعَلُوهُ مَحْمُودًا عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنْ الْعَدْلِ أَوْ تَرَكَهُ مِنْ الظُّلْمِ، وَلَا مَا فَعَلَهُ مِنْ الْإِحْسَانِ وَالنِّعْمَةِ أَوْ

تَرَكَهُ مِنْ العَذَابِ وَالنِّقْمَةِ. وَالْآخَرُونَ نَزَّهُوهُ بِنَاءً عَلَى الْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي أَثْبَتُوهُ، وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَسَوَّوْهُ بِخَلْقِهِ فِيمَا يَحْسُنُ وَيَقْبُحُ، وَشَبَّهُوهُ بِعِبَادِهِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ.

فَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْقَدَرِ فَقَطْ، وَعَظَّمَ الْفَنَاءَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَوَقَفَ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ = لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَالْبِرِّ وَالْفُجُورِ، وَالْعَدْلِ وَالظُّلْمِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالرَّشَادِ وَالْغَيِّ، وَأَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَهَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ بِالضَّرُورَةِ لِكُتُبِ اللَّهِ وَدِينِهِ وَشَرَائِعِهِ =فَهُمْ مُخَالِفُونَ أَيْضًا لِضَرُورَةِ الْحِسِّ وَالذَّوْقِ، وَضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ، فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَلْتَذَّ بِشَيْءٍ وَيَتَأَلَّمَ بِشَيْءٍ، فَيُمَيِّزَ بَيْنَ مَا يُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ، وَمَا لَا يُؤْكَلُ وَلَا يُشْرَبُ، وَبَيْنَ مَا يُؤْذِيه مِنْ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَمَا لَيْسَ كَذَلِكَ، وَهَذَا التَّمْيِيزُ بَيْنَ مَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ الشَّرْعِيَّةُ الدِّينِيَّةُ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْبَشَرَ يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ يَسْتَوِي عِنْدَهُ الْأَمْرَانِ دَائِمًا = فَقَدْ افْتَرَى، وَخَالَفَ ضَرُورَةَ الْحِسِّ؛ وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ عَارِضٌ كَالسُّكْرِ وَالْإِغْمَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَشْغَلُ عَنْ الْإِحْسَاسِ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، فَأَمَّا أَنْ يَسْقُطَ إحْسَاسُهُ بِالْكُلِّيَّةِ مَعَ وُجُودِ الْحَيَاةِ فِيهِ فَهَذَا مُمْتَنِعٌ، فَإِنَّ النَّائِمَ لَمْ يَفْقِدْ إحْسَاسَ نَفْسِهِ، بَلْ يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يَسُرُّهُ تَارَةً وَمَا يَسُوءُهُ أُخْرَى، فَالْأَحْوَالُ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالِاصْطِلَامِ وَالْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ إنَّمَا تَتَضَمَّنُ عَدَمَ الْإِحْسَاسِ بِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ، فَهِيَ مَعَ نَقْصِ صَاحِبِهَا - لِضَعْفِ تَمْيِيزِهِ - لَا تَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ يَسْقُطُ فِيهِ التَّمْيِيزُ مُطْلَقًا.

وَمَنْ نَفَى التَّمْيِيزَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُطْلَقًا، وَعَظَّمَ هَذَا الْمَقَامَ فَقَدْ غَلِطَ فِي الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ قَدْرًا وَشَرْعًا، وَغَلِطَ فِي خَلْقِ اللَّهِ وَفِي أَمْرِهِ؛ حَيْثُ ظَنَّ وُجُودَ هَذَا، وَلَا وُجُودَ لَهُ، وَحَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ مَمْدُوحٌ وَلَا مَدْحَ فِي عَدَمِ التَّمْيِيزِ وَالْعَقْلُ وَالْمَعْرِفَةُ.

وَإِذَا سَمِعْت بَعْضَ الشُّيُوخِ يَقُولُ: أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ، أَوْ أَنَّ الْعَارِفَ لَا حَظَّ لَهُ، أَوْ أَنَّهُ يَصِيرُ كَالْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيْ الْغَاسِلِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ =فَهَذَا إنَّمَا يُمْدَحُ مِنْهُ سُقُوطُ إرَادَتِهِ الَّتِي يُؤْمَرُ بِهَا، وَعَدَمُ حَظِّهِ الَّذِي لَمْ يُؤْمَرْ بِطَلَبِهِ، وَأَنَّهُ كَالْمَيِّتِ فِي طَلَبِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِطَلَبِهِ، وَتَرْكِ دَفْعِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِدَفْعِهِ، وَمَنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ تَبْطُلُ إرَادَتُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يُحِسُّ بِاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ، وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ =فَهَذَا مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ، وَمَنْ مَدَحَ هَذَا فَهُوَ مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الدِّينِ وَالْعَقْلِ .

وَالْفَنَاءُ يُرَادُ بِهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: هُوَ الْفَنَاءُ الدِّينِيُّ الشَّرْعِيُّ، الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، وَهُوَ أَنْ يَفْنَى عَمَّا لَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ بِهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَيَفْنَى عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ، وَعَنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَنْ التَّوَكُّلِ

عَلَى غَيْرِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَعَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ بِمَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ، وَعَنْ خَوْفِ غَيْرِهِ بِخَوْفِهِ، بِحَيْثُ لَا يَتَّبِعُ الْعَبْدُ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ، وَبِحَيْثُ يَكُونُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤] ، فَهَذَا كُلُّهُ هُوَ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ.

وَأَمَّا الْفَنَاءُ الثَّانِي: وَهُوَ الَّذِي يَذْكُرُهُ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَفْنَى عَنْ شُهُودِ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَيَفْنَى بِمَعْبُودِهِ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَبِمَذْكُورِهِ عَنْ ذِكْرِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، بِحَيْثُ قَدْ يَغِيبُ عَنْ شُعُورِهِ نَفْسِهِ وَبِمَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى =فَهَذَا حَالٌ نَاقِصٌ، قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِ السَّالِكِينَ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ لَوَازِمَ طَرِيقِ اللَّهِ، وَلِهَذَا لَمْ يَعْرِضْ مِثْلُ هَذَا لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلِلسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ.

وَمَنْ جَعَلَ هَذَا نِهَايَةَ السَّالِكِينَ فَهُوَ ضَالٌّ ضَلَالًا مُبِينًا، وَكَذَلِكَ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ لَوَازِمِ طَرِيقِ اللَّهِ فَهُوَ مُخْطِئٌ؛ بَلْ هُوَ مِنْ عَوَارِضِ طَرِيقِ اللَّهِ الَّتِي تَعْرِضُ لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، لَيْسَ هُوَ مِنَ اللَّوَازِمِ الَّتِي تَحْصُلُ لِكُلِّ سَالِكٍ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَهُوَ الْفَنَاءُ عَنْ وُجُودِ السِّوِيِّ، بِحَيْثُ يَرَى أَنَّ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْخَالِقِ، وَأَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ، فَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ وَالِاتِّحَادِ، الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَضَلِّ الْعِبَادِ.

وَأَمَّا مُخَالَفَتُهُمْ لِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ، فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَطْرُدَ قَوْلَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُشَاهِدًا لِلْقَدَرِ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ بَيْنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَحْظُورِ، فَعُومِلَ بِمُوجِبِ ذَلِكَ مِثْلَ أَنْ يُضْرَبَ وَيُجَاعَ حَتَّى يُبْتَلَى بِعَظِيمِ الْأَوْصَابِ وَالْأَوْجَاعِ =فَإِنْ لَامَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ وَعَابَهُ فَقَدْ نَقَضَ قَوْلُهُ، وَخَرَجَ عَنْ أَصْلِ مَذْهَبِهِ، وَقِيلَ لَهُ: هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مَقْضِيٌّ مَقْدُورٌ، فَخَلْقُ اللَّهِ وَقَدَرُهُ وَمَشِيئَتُهُ مُتَنَاوِلٌ لَك وَلَهُ، وَهُوَ يَعُمُّكُمَا، فَإِنْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لَك فَهُوَ حُجَّةٌ لِهَذَا، وَإِلَّا فَلَيْسَ بِحُجَّةٍ لَا لَك وَلَا لَهُ، فَقَدْ تَبَيَّنَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ فَسَادُ قَوْلِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى الْقَدَرِ، وَيُعْرِضُ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَفْعَلَ الْمَأْمُورَ، وَيَتْرُكَ الْمَحْظُورَ، وَيَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] ، وَقَالَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف: ٩٠] .

فَالتَّقْوَى فِعْلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرْكُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [غافر: ٥٥] ، فَأَمَرَهُ مَعَ الِاسْتِغْفَارِ بِالصَّبْرِ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ الِاسْتِغْفَارِ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إلَى رَبِّكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةٍ»** وَقَالَ: **«إنَّهُ ليغان عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»** ، وَكَانَ يَقُولُ: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَئِي وَعَمْدِي، وَهَزْلِي وَجِدِّي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْت وَمَا أَخَّرْت، وَمَا أَسْرَرْت وَمَا أَعْلَنْت، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ»**.

وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ إلَيْهِ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ، وَعَنْ إبْلِيسَ أَبِي الْجِنِّ -لَعَنَهُ اللَّهُ- أَنَّهُ أَصَرَّ مُتَعَلِّقًا بِالْقَدَرِ فَلَعَنَهُ وَأَقْصَاهُ، فَمَنْ أَذْنَبَ فَتَابَ وَنَدِمَ فَقَدْ أَشْبَهَ أَبَاهُ، وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ، ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٣] .

وَلِهَذَا قَرَنَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي غَيْرِ آيَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ ﴾ [محمد: ١٩] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت: ٦] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [هود: ١ – ٣] .

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ وَغَيْرُهُ: **« يَقُولُ الشَّيْطَانُ أَهْلَكْت النَّاسَ بِالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارِ، فَلَمَّا رَأَيْت ذَلِكَ بَثَثْت فِيهِمْ الْأَهْوَاءَ، فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ، لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا»**.

وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ ذِي النُّونِ أَنَّهُ نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ: ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٨] ، قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **«دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إلَّا فَرَّجَ اللَّهُ كَرْبَهُ»**.

وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ فِي «الْأَمْرِ» مَنْ أَصْلَيْنِ، وَلَا بُدَّ لَهُ فِي «الْقَدَرِ» مِنْ أَصْلَيْنِ.

فَفِي «**الْأَمْرِ**» عَلَيْهِ الِاجْتِهَادُ فِي الِامْتِثَالِ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَلَا يَزَالُ تَجْتَهِدُ فِي الْعِلْمِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَالْعَمَلِ بِذَلِكَ، ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ مِنْ تَفْرِيطِهِ فِي الْمَأْمُورِ، وَتَعَدِّيهِ الْحُدُودَ.

وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْمَشْرُوعِ أَنْ يَخْتِمَ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَكَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧]، فَقَامُوا بِاللَّيْلِ وَخَتَمُوهُ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ – ٣]، وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ.

وَأَمَّا فِي «**الْقَدَرِ**» فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَيَدْعُوَهُ، وَيَرْغَبَ إِلَيْهِ، وَيَسْتَعِيذَ بِهِ، وَيَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ، وَيَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَإِذَا آذَاهُ النَّاسُ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مُقَدَّرٌ عَلَيْهِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ احْتِجَاجُ آدَمَ وَمُوسَى، لَمَّا قَالَ: «يَا آدَمَ! أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، لِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟» فَقَالَ لَهُ آدَمَ: «أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ، فَبِكَمْ وَجَدْتَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُخْلَقَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١٢١]»، قَالَ: «بِكَذَا وَكَذَا»، فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى.

وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمْ يَكُنْ عَتَبُهُ لِآدَمَ لِأَجْلِ الذَّنْبِ؛ فَإِنَّ آدَمَ قَدْ كَانَ تَابَ مِنْهُ، وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ؛ وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَهُمْ مَأْمُورُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى الْقَدَرِ فِي الْمَصَائِبِ، وَأَنْ يَسْتَغْفِرُوا مِنَ المعائب، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

فَمَنْ رَاعَى الْأَمْرَ وَالْقَدَرَ -كَمَا ذَكَرَ- كَانَ عَابِدًا لِلَّهِ، مُطِيعًا لَهُ، مُسْتَعِينًا بِهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢ – ٣].

فَالْعِبَادَةُ لِلَّهِ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ عِنْدَ الْأُضْحِيَّةِ: **«اللَّهُمَّ مِنْك وَلَك»**. فَمَا لَمْ يَكُنْ بِاَللَّهِ لَا يَكُونُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ بِاَللَّهِ؛ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ.

وَلَا بُدَّ فِي عِبَادَتِهِ مِنْ أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ. **وَالثَّانِي:** مُوَافَقَةُ أَمْرِهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ.

وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدِ فِيهِ شَيْئًا».

وَقَالَ الفضيل بْنُ عِيَاضٍ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قَالَ: «أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ». قَالُوا يَا أَبَا عَلِيٍّ: مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: «إنَّ الْعَمَلَ إذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا».

وَالْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ.

وَلِهَذَا ذَمَّ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى اتِّبَاعِ مَا شَرَعَ لَهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ مِنْ الدِّينِ الذي لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَفِعْلِ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ مِنْ الدِّينِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، كَمَا ذَمَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ حَرَّمُوا مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ، وَالدِّينُ الْحَقُّ أَنَّهُ لَا حَرَامَ إلَّا مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ، وَلَا دِينَ إلَّا مَا شَرَعَهُ اللَّهُ.

ثُمَّ إنَّ النَّاسَ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

جامع عنبة بن غزوان رضي الله عنه

فَالْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ هُمْ لَهُ وَبِهِ، يَعْبُدُونَهُ وَيَسْتَعِينُونَهُ.

وَطَائِفَةٌ تَعْبُدُهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ وَلَا صَبْرٍ، فَتَجِدُ عِنْدَ أَحَدِهِمْ تَحَرِّيًا لِلطَّاعَةِ وَالْوَرَعِ، وَلُزُومِ السُّنَّةِ؛ لَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ تَوَكُّلٌ وَاسْتِعَانَةٌ وَصَبْرٌ؛ بَلْ فِيهِمْ عَجْزٌ وَجَزَعٌ.

وَطَائِفَةٌ فِيهِمْ اسْتِعَانَةٌ وَتَوَكُّلٌ وَصَبْرٌ، مِنْ غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ عَلَى الْأَمْرِ، وَلَا مُتَابَعَةٍ لِلسُّنَّةِ، فَقَدْ يُمَكَّنُ أَحَدُهُمْ، وَيَكُونُ لَهُ نَوْعٌ مِنْ الْحَالِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَيُعْطَى مِنْ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ مَا لَمْ يُعْطَهُ الصِّنْفُ الْأَوَّلُ، وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمُتَّقِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى، فَالْأَوَّلُونَ لَهُمْ دِينٌ ضَعِيفٌ وَلَكِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ بَاقٍ إنْ لَمْ يُفْسِدْهُ صَاحِبُهُ بِالْجَزَعِ وَالْعَجْزِ، وَهَؤُلَاءِ لِأَحَدِهِمْ حَالٌ وَقُوَّةٌ، وَلَكِنْ لَا يَبْقَى لَهُ إلَّا مَا وَافَقَ فِيهِ الْأَمْرَ، وَاتَّبَعَ فِيهِ السُّنَّةَ.

وَشَرُّ الْأَقْسَامِ: مَنْ لَا يَعْبُدُهُ وَلَا يَسْتَعِينُهُ؛ فَهُوَ لَا يَشْهَدُ أَنَّ عَمَلَهُ لِلَّهِ، وَلَا أَنَّهُ بِاللَّهِ.

فَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْقَدَرَ، هُمْ فِي تَعْظِيمِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَبْرِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنْ الشَّرْعِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالصُّوفِيَّةُ هُمْ فِي الْقَدَرِ وَمُشَاهَدَةِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ خَيْرٌ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ، وَلَكِنْ فِيهِمْ مَنْ فِيهِ نَوْعُ بِدَعٍ مَعَ إعْرَاضٍ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، حَتَّى يَجْعَلُوا الْغَايَةَ هِيَ مُشَاهَدَةُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْفَنَاءِ فِي ذَلِكَ، وَيَصِيرُونَ أَيْضًا مُعْتَزِلِينَ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَسُنَّتِهِمْ، فَهُمْ مُعْتَزِلَةٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ يَكُونُ مَا وَقَعُوا فِيهِ مِنْ الْبِدْعَةِ شَرًّا مِنْ بِدْعَةِ أُولَئِكَ الْمُعْتَزِلَةِ، وَكِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ نَشَأَتْ مِنْ الْبَصْرَةِ.

وَإِنَّمَا دِينُ اللَّهِ مَا بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ طَرِيقَةُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، خَيْرِ الْقُرُونِ، وَأَفْضَلِ الْأُمَّةِ، وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ النَّبِيِّينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فَرَضِيَ عَنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ رِضًا مُطْلَقًا، وَرَضِيَ عَنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ: **«خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْت فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»**.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-يَقُولُ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ؛ فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أَبَرُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقُهَا عِلْمًا، وَأَقَلُّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمْ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَتَمَسَّكُوا بِهَدْيِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ».

وَقَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ! اسْتَقِيمُوا، وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَوَاَللَّهِ! لَئِنْ اتَّبَعْتُمُوهُمْ لَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، وَلَئِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا».

وَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: **خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-خَطًّا، وَخَطَّ حَوْلَهُ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، وَهَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣] **»**.

وَقَدْ أَمَرَنَا سُبْحَانَهُ أَنْ نَقُولَ فِي صِلَاتِنَا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦ – ٧] ، وَقَالَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **«الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى**

ضَالُّونَ» ، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ، وَالنَّصَارَى عَبَدُوا اللَّهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ. وَلِهَذَا كَانَ يُقَالُ: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ، وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ؛ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣ – ١٢٤] ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ» وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ١ – ٥] ، فَأَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُهْتَدُونَ مُفْلِحُونَ، وَذَلِكَ خِلَافُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَهْدِيَنَا وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ؛ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّيْنِ والصديقين وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِه، عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

بحمد الله تعالى

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

فائدة: قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي رِسَالَتِهِ:

«فَحَقٌّ عَلَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ:

بُلُوغُ غَايَةِ جُهْدِهِمْ فِي الْاسْتِكْثَارِ مِنْ عِلْمِهِ،

وَالصَّبْرُ عَلَى كُلِّ عَارِضٍ دُوْنَ طَلَبِهِ،

وَإِخْلَاصُ النِّيَّـــةِ للهِ فِي إِدْرَاكِ عِلْمِهِ: نَصًّا وَاسْتِنْبَاطًا،

وَالرَّغْبَةُ إِلَى اللهِ فِي العَوْنِ عَلَيْهِ، فَإِنَّه لَا يُدْرَكُ خَيْرٌ إِلَّا بِعَوْنِهِ».

متن

نُور البَصَائِرِ والألبَابِ

في

أحكَام العبَادات والمُعامَلات والحُقوق والآدَاب

تأليف الشَّيخ العَلامة :

عبد الرَّحمن بن نَاصِر السَّعدي

رحمه الله (١٣٠٧ -١٣٧٦هـ)

[مِنْ كِتَابِ الْوَقْفِ وَالْهِبَةِ وَالوَصِيَّةِ حَتَّى كِتَابِ النَّفَقَاتِ]

(شَرح وتَعلِيق)

فضيلة الشَّيخ / فُؤاد بن سعُود العَمرِي

حفظه الله تعالى

كتاب الوَقف والهِبة والوَصية[1]

الوَقف: من الأعمال الصَّالحة الجارِي أجرُها ما دام نفعها؛ ولهذا يُشترط:

- أن يكون الموقوف على جهةٍ من جهات البرِّ الخاصَّة أو العامَّة.
- وأن يكون الموقوف عَينًا يُنتفع بها مع بقاء أصلها؛ كالعقارات، والأواني، والسِّلاح، والحيوانات، والمصاحف، والكتب، ونحوها.
- ويُتَّبَع فيها نصُّ المُوقِف إذا كان على وَفق الشرع، وإلَّا وجب تعديلها لتوافق المشروع.

وعلى النَّاظِر: ملاحظةُ الوقف بالحفظ والتَّعمير بالمعروف، وقبضُ الرِّيع وتنفيذُه على المستحقِّين، والمعاملةُ عليه بالمساقاة، والمزارعة، والتَّأجير، والمشاركة، وعليه أن يجتهدَ في أصلح الأمور.

ولا يحل بَيع الموقوف إلَّا إذا تعطَّلت منافعه بخرابٍ أو غيره، فيُباع ويُصرف ثمنه في مثلِه أو بعض مثله، ويكون ذلك البدل وَقفًا بمجرَّد الشِّراء.

.....

.....

.....

.....

جامع عنبة بن غزوان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

.....

---

(١) من «كتاب نور البصائر والألباب في أحكام العبادات والمعاملات والحقوق والآداب»(٢٢/٣٣٢) مطبوع ضمن مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، الطبعة الأولى (١٤٣٢هـ - ٢٠١١م) مؤسسة الأميرة العنود الخيرية.

[الهِبَة والوَصِيَّة](١)

وأمَّا الهِبَة: فهي التبرُّع بالمـال في حال الحياة. **والوَصيَّة:** التبرُّع به بعد الوفاة، أو الأمر بالتصرُّف فيه بعد الموت. وهما من طُرق الإحسان، ويتفاوَت الإحسان بحسب نفعه، ومصلحته، وعموم نفعه.

والوَصيَّة: تكون من الثُّلث فأقل لِغَير وارث.

ومن كان عنده مال كثير، وورثته أغنياء، سُنَّ له أن يوصي بخُمس ماله في أعمال البر التي يخرجها عن ورثته؛ ليتمَّ الأجر والثواب، وينحسم الشرُّ والنِّزاع بين الورثة المتعلِّقين بالوصايا، وإذا كان قصده بر أولاده فلا يوصي بشيء، بل يجعل ماله ميراثًا بينهم على مواريثهم من كتاب الله.

ولا عبرة بما اعتاده جمهور النَّاس من حصر الوصية على الأولاد، ثمَّ على أولاد البنين فقط، فإنَّ هذا خلاف الشرع، وخلاف العقل، وقد أضرَّ بنَفْسِه وبهم؛ إذْ تسبب لإحداث البغضاء والعداوة بينهم، والاتكال عليها والكسل.

ولا تنبغي الوصية لفقيرٍ له ورثة محتاجون.

ومَن عليه حقوقٌ للنَّاس، وديون خالية من البيِّنات، وجبَ عليه وجوبًا مؤكدًا أن يوصِي بقضائها؛ فإنْ لم يفعل فلا يلومنَّ إلَّا نفسه إذا بقي في قبره معذبًا متحسِّرًا معلَّقة روحه في دَيْنه.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

(١) تنبيه: ما بين معكوفتين ليس في الأصول.

فَصْلٌ

[الهِبَة والعَطِيَّة]

ويجب التَّعديل بين الأولاد في العَطِيَّة، ولا يحل أن يفضَّل أو يخصَّص بعضهم على بعض إلَّا بإذن الباقِين، وللأب أن يتملَّك من مال ولده ما لا يضرُّه، وليس لأحدٍ أن يرجع في عطيته اللازمة إلَّا الأب فيما يعطيه لولده.

جامع عنبة بن غزوان رضي الله عنه

(بابُ المواريث)

[الحقوقُ المتعلِّقة بالتَّرِكَة]

إذا مات الإنسان بُدِئ من تركته بمؤنة تجهيزه، ثم يوفَّى ما عليه من دَيْن، وذلك من رأس المال أوصَى به أو لا، ثمَّ تنفذ وصيته إذا كانت بالثلث فأقل لِغَير وارث، أو أجاز الوارث الرشيد ما زاد على الثلث أو لِوَارث، ثمَّ يُقسم الباقي على ورثته، سواء كانت أعيانًا، أو ديونًا، أو حقوقًا، أو توابع ذلك، والله أعلم.

فَصْلٌ

[قِسمةُ المواَرِيث]

قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»؛ فالفروض التي ذكرها الله في كتابه يُبدأ بها، ثمَّ إنْ بقي شيءٌ فلِأقرب ما يكون من العَصَبَة.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[أصحابُ الفُرُوض]

فللزَّوج من زوجته النِّصف إن لم يكن لها ولد صُلْب، أو ولد ابن، ذكر أو أنثى، منه أو من غيره، وله الرُّبع مع عدم ذلك. **وللزوجة أو الزوجات** نصف حَالَيْهِ فيهما.

وللأم السدس مع الولد أو اثنين فأكثر من الإخوة والأخوات، والثلث مع عدم ذلك، وثلث الباقي في أبوين وأحد الزوجين.

وللجدة أو الجدَّات المتساويات السدس مع عدم الأم.

وللأب السدس مع الأولاد الذكور، والسدس فرضًا والباقي تعصيبًا إذا كان الولد أنثى أو إناثًا وبقي بعد الفرض شيء، ومع عدم الأولاد يكون عاصبًا يرث المال كله، أو ما بقي بعد الفروض.

والجد حكمه حكم الأب عند عدمه إلا في العمريتين، فللأم مع الجد ثلث كامل، وإلَّا مع الإخوة الأشقاء، أو لأب فيرثون مع الجد في المشهور من مذهب الإمام، والرواية الثانية هي الصحيحة؛ أنهم لا يرثون مع الجد كما لا يرثون مع الأب.

ولبنت الصلب، أو بنت الابن الواحدة النصف، **وللثنتين فأكثر من المذكورات** الثلثان، **فإن كان بنت وبنت ابن** فللبنت النصف ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين، ومثلهن **الأخوات الشقيقات والأخوات للأب**.

فإن كان مع الجميع ذكر في منزلتهن عصبهن وصار للذكر مثل حظ الأنثيين.

وللأخ أو الأخت من الأم السدس، **ولاثنين فأكثر منهما** الثلث، يستوي فيه ذكرهم وأنثاهم، ولا يرثون إلا في الكَلاَلَة، أي: إذا عدم الفروع مطلقًا والأصول الذكور.

وإذ وُجِد **أخوات لغير أم مع البنات، أو بنات الابن**، أخذ البنات فرضهن السابق، وما بقي فللأخوات.

فالأخوات الشقيقات أو لأب مع البنات أو بنات الابن عصبات.

.....

.....

.....

.....

فَصْلٌ

[العَصَبات]

والعَصَبَة: هُم كلُّ ذَكَر ليس بينه وبين الميت أحد، أو ليس بينه وبينه إلَّا ذكور، فيدخل في ذلك الفروع الذكور وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن عَلَوا، وفروع الأصول الذكور وإن نزلوا، وكذلك صاحب الولاء.

وجهاتهم على الصَّحيح خمس: البُنُوَّة، ثمَّ الأُبُوَّة، ثمَّ الإخوة وبنوهم، ثمَّ الأعمام وبنوهم، ثمَّ الولاء، فإن وُجد من هؤلاء عاصب واحد أخذ المال كلَّه، أو ما أبقَت الفروض.

وإن وُجد اثنان منهم قُدم الأقرب جهة على حسب الترتيب الذي ذكرنا، فإن كانوا في جهة واحدة قُدِّم الأقرب منزلة، ثمَّ إنِ استووا قُدِّم الشَّقيق على الذي لِأب، ثمَّ إنِ استووا من كلِّ وجهٍ اشتركوا.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

فَصْلٌ

[العُول]

فإِنْ كثرت الفروض وزادت على أصل المسألة عولت بين الجميع، وكان النقص بينهم على قدر فروضهم، وتأخذ سهامهم من أصلها.

فزوج، وأخت شقيقة، وجدة: من ستة، وتعول إلى سبعة، فإن كان معهم أخ لأم عالت إلى ثمانية، وإن كان الإخوة اثنين فأكثر فإلى تسعة، فإن كانت الشقيقات ثنتين فأكثر فإلى عشرة.

وفي زوجة، وأختين شقيقتين، وأخ لأم: من اثني عشر، وتعول إلى ثلاثة عشر، فإن كان الإخوة اثنين فأكثر عالت إلى خمسة عشر، فإن كان معهم جدة فإلى سبعة عشر.

وفي زوجة، وأبوين، وابنتين: من أربعة وعشرين، وتعول إلى سبعة وعشرين.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[الرَّدُ]

فإن نقصت الفروض عن أصل المسألة وليس فيها عاصب لا قريب ولا بعيد رد على أهل الفروض بقدر فروضهم، فجدة وأخ من أم: من اثنين، فإن كان الإخوة اثنين فأكثر فمن ثلاثة.

وفي بنت وبنت ابن: من أربعة، فإن كان معهما أم فمن خمسة، ولا تزيد على ذلك؛ لأنها لو زادت سدسًا لاستغرقت الفروض فلا رد، وإن كان صاحب الفرض واحدًا أخذ الجميع فرضًا وردًّا.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

فَصْلٌ

[ميراثُ ذَوِي الأَرحَام]

فإذا مات ميت وليس له من الورثة أحد من أصحاب الفروض ولا العَصَبَات ورثه ذوو الأرحام؛ وهم بقية الأقارب الذين ليسوا بذي فروض ولا عَصَبَة؛ كأولاد البنات، وأولاد الأخوات، وأولاد الإخوة لأم، وبنات الإخوة، وبنات الأعمام، والعمَّات، والأخوال، والخالات، والجد الذي من جهة الأم.

وصفة توريثهم أن يُنزلوا منزلة من أَدْلوا به من أصحاب الفروض أو العَصَبَة فيقومون مقامهم؛ لأنهم متفرِّعون عنه وبه أدلوا، والله أعلم.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[ميراثُ الحَمْل]

ولا يرث الحمل إلَّا إذا خرج حيًّا بأن استهلَّ صارخًا ونحوه، ويُوقف نصيبه إن قُسمت التركة قبل الوضع، فإن خرج ميتًا رُدَّ ما وقف له على بقية الورثة، وإن وقف له أقل رجع على الورثة ببقية حقه.

[ميراثُ المطلَّقة]

ومَن مات وقد طلَّق زوجته طلاقًا بائنًا، فإن كان في مرض موته المَخُوْف ورثت منه، وإن كان الطلاق في الصِّحة أو في مرض غير مَخُوف لم ترث، وأمَّا الرَّجعية فإذا مات زوجها وهي في العدَّة وَرِثت واعتدَّت واحتدَّت.

جامع عقبة بن عزوان رضي الله عنه

(باب العتق)

وهو تحرير الرَّقبة وتخليصها من الرِّق، وهو من أفضل الطَّاعات، وخصوصًا عتق مَن لهم كَسْب ولا يُخشى منهم الفساد.

ويحصل العتق:

- بالقَول: كقوله: أعتقتك، أو حرَّرتك، ونحوه.
- وبالفِعل: كما لو مثَّل برقيقه فجدع بعض أعضائه، أو حرقها، أو خرقها. فيعتق بذلك.
- وبالمِلك: كما لو مَلَك أحدًا من أصوله، أو من فروعه، أو من فروع أصوله، فيعتق بمجرَّد دخوله في ملكه.

ويحصل العتق بالسراية، فإذا أعتق جزءًا من رقيقه عتق كله، وإن كان مشتركًا فأعتق أحدُ الشركاء نصيبه عتق عليه كله إن كان موسرًا، وغرم لشريكه حصَّته منه؛ وإن كان مُعسرًا عتق الجميع واستسعَي العبد بما يقابل نصيب الشَّريك الذي لم يباشر العتق بحسب العُرف على الصَّحيح.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[الوَلَاء]

ومَن أعتق مملوكًا بشيءٍ ممَّا تقدَّم فله عليه الولاء وعلى أولاده بشرط كَونهم من زوجةٍ عتيقة أو أَمَة، فيرث المعتِق ما خلَّفه العتيق إن لم يكن له ورثة، وما أبقت الفروض إن بقي شيء، فإن وُجِد له عاصِب من النسب قُدِّم على الوَلاء، والله أعلم.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

كتاب أحكام الأنكحة

وهي كثيرة جدًّا؛ وسبب ذلك: أنَّ له أحكامًا في أوَّله، وأحكامًا في استمراره، وأحكامًا عند انتهائه؛ وكلًّا منها يتفرَّع إلى أحكامٍ كثيرة، فنذكر منها المهم:

أمَّا النِّكاح فإنَّه من سُنن المرسلين، وممَّا حثَّ الله ورسوله عليه؛ لِمَا فيه من الفوائد الضَّرورية، والكمالية، الدِّينية، والدُّنيوية.

وينبغي أن يختار ما طابَ من النِّساء، وكَمُلَ دينها، وحَسُنَت آدابها، وشَرُفَ بيتها، فإن حصَل مع ذلك الجمال وبقية الصِّفات المقصودة فهو أكمل.

ولذلك ينبغي قبل الخطبة أن ينظر إلى مَن أراد تزوُّجها، أو يصفها له مَن يثق به؛ ليكون على بصيرةٍ من أمره، ولا يحلُّ له أن يخطب على خطبة أخيه حتَّى يأذن أو يُرَد.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

فَصْلٌ

[أركانُ النِّكاح وشرُوطه ومُستحبَّاته]

ولا بدَّ للنكاح من الإيجاب؛ وهو: اللفظ الصادر من الولي أو نائبه، كقوله: زوجتُك فلانة.

ومنَ القَبول؛ وهو: اللَّفظ الصَّادر من الزَّوج، أو مَن يقوم مقامه، كقوله: قَبِلْتُ نكاحها ونحوه.

ولا بدَّ من الرِّضَى وعدم الإكراه لكلٍّ منهما، إلَّا للوَلي المُجْبِر؛ كالأب الذي يُجبر البِكر الصغيرة.

ولا بدَّ من الولي؛ وهو: الأب، ثمَّ الأقرب فالأقرب من العَصَبات البالغين المرشدين، وأَنْ تأذن له بالقَول إن كانت ثيِّبًا، وبِه أو بالسُّكوت إنْ كانت بِكرًا.

ولا بدَّ من الشاهِدَيْن عند عقده.

ومن تعيين الزَّوجة باسمها أو صفتها التي تميِّزها.

فإذا تمَّ العقد وحصل الدُّخول؛ فينبغي أن يأخذ بناصِيَتها ويقول: «اللَّهم إنِّي أسألك خيرَها وخير ما جَبَلْتَها عليه، وأعوذ بك من شرِّها وشر ما جَبَلْتها عليه»، وعند الوِقَاع يقول: «بِسم الله، اللَّهم جنِّبنا الشَّيطان وجنِّب الشَّيطان ما رزقتنا».

وينبغي تخفيف الصَّداق مع موافقتها وموافقة وليِّها، وإلَّا فلا بدَّ له أن يعطي في الصَّداق ما يعطي أمثالُه في بلده؛ فإنَّ الصَّداق وما يتبعه، والنَّفقات من طعامٍ وكسوة، مَرْجِعُها إلى العُرف الجارِي بين النَّاس، إلَّا مع الاتِّفاق والرِّضى على أقل أو أكثر.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

والوليمة على عقد الزواج مستحبَّةٌ بحسب حال الزوج يَسارًا وإعسارًا، والإجابةُ إليها واجبةٌ، وإلى باقي الدَّعوات سُنَّة.

وعلى النَّاس في الولائم والدَّعوات ونحوها سلوكُ طريق الاقتصاد، واجتناب الإسراف.

....

....

....

....

فَصْلٌ

[المُحرَّمات في النِّكـاح على التَّأبِيد]

[المُحرَّمات على التَّأبِيد]

والمحرَّمات من النِّساء: الفروع وإن نزلن، والأصول وإن علَون، وفروع الأب والأُم وإن نزلن، وفروع الأجدَّاد والجدات لصلبهم فقط، فالقرَابات كلهنَّ حرام، إلَّا بنات العم، وبنات العمَّات، وبنات الأخوال، وبنات الخالات.

ويحرُم من الرَّضاع ما يحرم من النَّسب من جهة المرضعة وصاحب اللبن، وأمَّا من جهة أقارب الراضع فلا يدخل في التَّحريم إلَّا ذريته فقط.

وأمَّا المحرَّمات بالصِّهْر: فإذا تزوَّج الرجل أنثى حَرُمت على أبنائه وإن نزلوا، وعلى آبائه وإن علَوا، وحَرُم على المتزوِّج أمهات زوجته وإن علون، وبناتها من غيره وإن نزلن بشرط أن يدخل بها في الأخيرة، **وحُكم الرضاع في ذلك حكم النَّسب**. هؤلاء الأقسام الثلاثة يَحْرُمْن على التَّأبيد.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[المُحرَّمات إلى أَمَد]

وأمَّا المحرَّمات إلى أَمَدٍ فهي: أخت الزوجة، وعمَّتها، وخالتها، أو من هي عمَّتها، أو خالتها، بنسبٍ أو رضاع. ولا تحل المُعْتَدَّة والمُسْتَبرَأة من الغير حتى تنقضي عدتُها، ولا يحل التَّعريض ولا التَّصريح بخطبة المُعْتَدَّة الرَّجعية. وأمَّا البائِن فيحل التَّعريض ويحرم التَّصريح لها بالخطبة.

وتحرم الزَّانية على الزَّاني وغيره حتَّى تتوب.

ولا يُعقد النِّكاح في حال إحرام الرَّجُل أو المرأة.

وتحرم مطلقته ثلاثًا حتَّى تنقضي عدَّتها وتتزوَّج غيره بنكاحٍ صحيحٍ غير نكاح التَّحليل فإنَّه حرامٌ لا يفيد الحِل، ويطأها الزَّوج الثَّاني، ثمَّ إذا رغب عنها وطلَّقها وانقضت عدَّتها حلَّت للأوَّل.

ولا يحلُّ للمسلم نكاح الكافرة، إلَّا اليهودية، والنَّصرانية، ولا للكافر نكاح المسلمة على كلِّ حال.

جامع عنبة بن غزوان رضي الله عنه

فَصْلٌ

[الشُّروطُ في النِّكاح]

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن أحقَّ الشروط أن توفوا به ما استحلَلْتم به الفروج» متفقٌ عليه.

فكلُّ شرط شَرَطه أحد الزَّوجين على الآخر فإنَّه صحيحٌ يجب الوفاء به:

إلَّا نكاح الشِّغَار: بأن يزوج كلٌّ منهما الآخر مَوليته بشرط أن يزوِّجه الآخر ولا مهر بينهما.

وإلَّا نكاح التَّحليل: الذي يقصد به حلها لمطلقها ثلاثًا.

وإلَّا نكاح المُتعة: بأن يتزوَّجها إلى مدَّةٍ ثمَّ يفارقها.

فهذه شروطٌ فاسدة مُفْسِدة للنِّكاح، وما سواها ممَّا لهما أو لأحدهما فيه مقصودٌ صحيح فإنَّه صحيحٌ لازم.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[العِشرةُ بين الزَّوجين]

ويلزم كل واحدٍ من الزَّوجين عِشرة الآخر بالمعروف من الصُّحبة الجميلة، وكفِّ الأذى عنه، واحتمال الهفوات.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا خُلُقًا آخَرَ».

وعلى المرأة احتمال ما يَرِدُ عليها من زوجها، وخدمته بالمعروف. وينبغي أن تتشرَّف له وتتجمَّل، خصوصًا في أوقات الفراغ من مهنة البيت، وأن لا يقع بصرُه منها على ما يكره.

وعليها أن تطيعه، وتقدِّم طاعته على طاعة أبوَيها إن تعذَّر الجمع ورِضَى الطَّرفين، ولا تخرج إلَّا بإذنه، ولا تأذن في بيته لأحدٍ إلَّا بإذنه.

وينبغي أن تحتسب الأجر عند الله في طاعة الزَّوج، وخدمته، وإدخال السُّرور عليه، وخصوصًا إذا كَبُرَ، أو مرض، مع ما لها من الخير العاجل في ذلك، قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

جامع غنبة بن غزوان رضي الله عنه

فَصْلٌ

[العَدلُ والقَسْم بين الزَّوجات]

وعليه أنْ يعدِل بين زوجاته في القَسْم، وكذا على الصَّحيح في النَّفقة، والكُسوة، وتوابعها. وأمَّا المحبَّة وما يتبعها من الوطء فلا يجب؛ لأنَّه لا يستطيعه ولا يملكه.

ومن تزوَّج زوجة بكرًا أقام عندها سبع ليالٍ بأيامها ثمَّ عاد إلى القَسْم، وإن كانت ثيِّبًا أقام عندها ثلاثًا ثمَّ قسم، وإن شاءت قسم لها سبعًا وقسم مثلها لبقيَّة زوجاته.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[النُّشوز]

ومَن عَصَت زَوجها ونَشَزَت وتركت طاعته الواجبة بلا تقصير منه؛ سقط حقُّها من القَسْم والنَّفقة حتَّى ترجع إلى طاعته، ويقوِّمها بالوَعظ والتَّذكير لها بما يجب من حقِّه، فإن أصرَّت هجرها، ثمَّ إن تمرَّدت فله أن يضربها ضربًا غير مُبَرِّح.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[الخُلْع]

وإذا تعذَّرت الملاءَمة بينهما فلها أن تُخَالِعَه وتفتدِي منه بما يتَّفقان عليه من قليلٍ أو كثير، فإذا خَلَعَها كان ذلك فسخًا بائنًا لا ينقص به عدد الطلقات، ومثل ذلك: مَن فسخها الحاكم لمُوجب؛ كتقصيره فيما يجب من نفقةٍ، أو وطءٍ، أو حضور من سافر، إذا رُوجع في ذلك وليس له عذرٌ شرعي، فالفسُوخ كلها لا ينقص بها عدد الطَّلاق، ويكون ذلك بائنًا إلَّا أنَّه ليس كالطَّلاق الثلاث، بل يحلُّ أن يتزوَّجها بنكاحٍ جديدٍ برضاها ووليٍّ وشهود، ولو في عدَّتها؛ لأنَّ العدَّة لمُبِينها أو للمفسوخة منه.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[الطَّلاق والعِدَّة وتوابع ذلك]

وأمَّا الطَّلاق فقد أباحه الله تعالى وخصوصًا عند الحاجة إليه، فإنْ لم يحتج إليه فينبغي للزَّوج أن يصبر على زوجته، وخصوصًا إذا كان لها أولاد منه؛ فإنَّ في الصَّبر عليها خيرًا كثيرًا في الدِّين والدُّنيا، وعواقب حميدة. وإذا بدَى له طلاقها طلَّقها طلقة واحدة في طُهرٍ لم يطأها فيه، ولا يحل له أن يطلِّقها وهي حائض، أو في طُهرٍ قد وطئها فيه، إلَّا أن تكون صغيرة لم تحض، أو آيسة من الحيض، أو حاملاً قد استبَان حملها، فلا بأس بطلاقها؛ لأنَّها حينئذٍ تشرع في عدَّتها من طلاقه، وذلك بوَضع الحمل إن كانت حاملاً، وبثلاثة أشهر لِلآيسة ولمَن لم تحض لِصِغَرٍ ونحوه.

وأمَّا مَن تحيض فعدَّتها ثلاث حِيَض كاملات، ولا يعتدُّ بالحَيضة التي طلَّقها وهي فيها؛ ولهذا حَرُم طلاقها في الحيض كمَّا تقدم.

ولها النَّفقة في مدَّة العدَّة، وحُكمها حُكم الزَّوجات في كلِّ شيءٍ من الأحكام إلَّا في القَسْم.

وأمَّا المطلقة ثلاثًا والبائِن بفسخٍ من الفسوخ، فلا نَفَقة لها ولا سُكنَى.

وعدَّة المتوفَّى عنها زوجها وضعُ الحمل إن كانت حاملاً، فإنْ لم تكن حاملاً فعدَّتها أربعة أشهرٍ وعشر، وعليها في مدَّة العدَّة الإحدادُ، وهو: ترْكُ ما يدعو إليها ويُرغِّب الرِّجال فيها؛ من الطِّيب، والحُلِّي، وثياب الزِّينة، والتَّحسين بالحنَّاء ونحوه. وعليها لزومُ المَسْكَن؛ فلا تخرج منه في مدَّة العدَّة إلَّا إذا احتاجت في النَّهار لا في الليل.

جامع عنبة بن عروان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

.....

[الشَّكُّ في الطَّلاق]

ومن شكَّ في الطَّلاق، أو في عدده؛ لم يلزمه ما شكَّ فيه، واستَصحَب العِصمَة.

[تَعلِيق الطَّلاق]

ومَن علَّق طلاق زَوجته بزمنٍ، أو وجود شيء؛ صحَّ التَّعليق، ولم تطلق حتَّى يجيء المعلَّق عليه وهي في عِصمَته.

[الصُّور التي تَبِين بها المرأة من زَوجِها]

ويصير الفِراق بائنًا في ستِّ صور: إذا مات الزَّوج، وإذا فُسخت منه لمُوجب، وإذا كان الطَّلاق على عِوَض، وإذا كان الطَّلاق بالثَّلاث، وإذا طلَّق قبل الدُّخول، وإذا طلَّق في نكاحٍ فاسد.

جامع عنبة بن غزوان رضي الله عنه

فَصْلٌ

[الظِّهار والتَّحرِيم]

وإذا ظاهَر الزَّوج من زوجته أو حرَّمها فقد فعل مُنكرًا من القول وزُورًا، وعليه الكفَّارة قبل المسيس: عليه عِتق رقبة، فمَن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإنْ لم يستطع فإطعام ستِّين مسكينًا، فإذا كفَّر حلَّت له.

وأمَّا من حرَّم غير زوجته، من طعامٍ، أو شراب، أو كسوة، أو أَمَة، أو غيرها؛ فعليه لذلك كفَّارة يَمِين.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[الإِيلَاء]

وإذا حلف أن لا يطَأ زوجته أبدًا، أو مدَّة تزيد على أربعة أشهر، فهو مُؤْلٍ، فإنْ طلبت الزَّوجة منه الوطء أُلزِم بذلك، وضُرب له أربعة أشهر، فإنْ وطأها فقد فاء، وعليه كفَّارة يمين، وإنْ مضت ولم يطأ - وهي مقيمةٌ على دعواها - أُمِر بالوَطء، فإن امتنع أُجبر على فراقها، فإنِ امتنع طلَّقها منه الحاكم.

[اللِّعان]

ومن قَذَف زوجته بالزِّنى حُدَّ للقذف ثمانون، إلَّا أن يقيم البيِّنة أربعة رجال، فيُقام عليها الحدُّ، أو يُلاعن بأن يَشْهَد عليها خمس مرَّات أنَّها زانية، ويلعن نفسَه في الخامسة إن كان من الكاذبين.

ويدْرأُ عنها العذاب - إمَّا الحدُّ على الصَّحيح، أو التَّعزير -: أن تشهد خمس شهادات بالله إنَّه لمن الكاذبين، وتزيد في الخامسة أنَّ غضب الله عليها إنْ كان من الصَّادقين، ثمَّ تحصل الفرقة المؤبَّدة. وينتفِي بذلك الولد الذي نفاه ولاَعَنَ على ذلك؛ فالولد لِلفِراش إلَّا بأحد أمرين: إمَّا اللِّعان، وإمَّا عدم الإمكان؛ بأنْ تأتي به لِأقل من ستَّة أشهر من تزوُّجِه بها ويعيش، أو بعد فراقه في مدَّةٍ يعلم أنَّه ليس منه.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[النَّفقَات]

ونفقةُ القرِيب الفقير واجبةٌ على قرِيبه المُوسِر بهذَين الشَّرطين: غِنَى المنفِق، وفقر المُنْفَق عليه، وكَون المُنْفِق وارثًا للمُنْفَق عليه إذا كان من الحواشي.

وأمَّا الأصول والفروع فلا يشترط غير الشرطين الأولين.

وعليه نفقة مماليكه من الآدميين، والبهائم، وأن يقوم بكفايتهم، ولا يكلِّفهم من العمل ما لَا يطيقُون.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

فائدة: صَحَّ عَنِ الإِمَامِ الزُّهْرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّه قَالَ: «مَا عُبِدَ اللهُ بِمِثْلِ الْفِقْهِ».

وَصَحَّ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ قَالَ:

« حَظٌّ مِنْ عِلْمٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَظٍّ مِنْ عِبَادَةٍ ».

وَصَحَّ عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ القُرَشِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّه قَالَ:

«طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ الصَّلَاةِ النَّافِلَةِ».

متن

(شرح السنّة)

تأليف

الإمام المُزَنِي

رحمه الله تعالى

(١٧٥ - ٢٦٤هـ)

(شَرح وتَعلِيق)

فضيلة الشّيخ / محمّد بن رمزان الهاجري

حفظه الله تعالى

١٤٣٧هـ
الدورة العلمية الرابعة عشرة
متون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَصَمَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِالتَّقوَى، وَوَفَّقَنَا وَإِيَّاكُمْ لِمُوَافَقَةِ الْهُدَى.

أَمَّا بعدُ:

فَإِنَّكَ سَأَلْتَنِي أَنْ أُوضِحَ لَكَ مِنَ السُّنَّةِ أَمْرًا تُصَبِّرُ نَفْسَكَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِهِ، وَتَدْرَأُ بِهِ عَنْكَ شُبَهَ الْأَقَاوِيلِ، وَزَيْغَ مُحْدَثَاتِ الضَّالِّينَ، وَقَدْ شَرَحْتُ لَكَ مِنْهَاجًا مُوضِحًا، لَمْ آلُ نَفْسِي وَإِيَّاكَ فِيهِ نُصْحًا، بَدَأْتُ فِيهِ بِحَمْدِ اللهِ ذِي الرَّشَدِ وَالتَّسْدِيدِ.

الْحَمْدُ للهِ أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ، وَأَوْلَى مَنْ شُكِرَ، وَعَلَيْهِ أُثْنِي.

[ضرورة إثبات الصفات بلا تمثيل ولا تعطيل]

١ - الْوَاحِدُ الصَّمَدُ، لَيْسَ لَهُ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدَ، جَلَّ عَنِ الْمَثِيلِ؛ فَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ، السَّمِيعُ البَصِيرُ، الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ، الْمَنِيعُ الرَّفِيعُ.

[العُلو]

جامع عتبة بن عروان رضي الله عنه

٢ - عَالٍ عَلَى عَرْشِهِ، وَهُوَ دَانٍ بِعِلْمِهِ مِنْ خَلْقِهِ.

.....

.....

.....

.....

[القضاء والقدر]

٣ – أَحَاطَ عِلْمُهُ بِالْأُمُورِ، وَأَنْفَذَ فِي خَلْقِهِ سَابِقَ الْمَقْدُورِ، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] . فَالْخَلْقُ عَامِلُونَ بِسَابِقِ عِلْمِهِ، وَنَافِذُونَ لِمَا خَلَقَهُمْ لَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الطَّاعَةِ نَفْعًا، وَلَا يَجِدُونَ إِلَى صَرْفِ الْمَعْصِيَةِ عَنْهَا دَفْعًا. خَلَقَ الْخَلْقَ بِمَشِيئَتِهِ عَنْ غَيْرِ حَاجَةٍ كَانَتْ بِهِ.

[الملائكة]

٤ – وَخَلَقَ الْمَلَائِكَةَ جَمِيعًا لِطَاعَتِهِ، وَجَبَلَهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِ؛ فَمِنْهُمْ مَلَائِكَةٌ بِقُدْرَتِهِ لِلْعَرْشِ حَامِلُونَ، وَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ حَوْلَ عَرْشِهِ يُسَبِّحُونَ، وَآخَرُونَ بِحَمْدِهِ يُقَدِّسُونَ، وَاصْطَفَى مِنْهُمْ رُسُلاً إِلَى رُسُلِهِ، وَبَعْضٌ مُدَبِّرُونَ لِأَمْرِهِ.

[آدم عليه السلام]

٥ – ثُمَّ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَقَبْلَ ذَلِكَ لِلْأَرْضِ خَلَقَهُ، وَنَهَاهُ عَنْ شَجَرَةٍ قَدْ نَفَذَ قَضَاؤُهُ عَلَيْهِ بِأَكْلِهَا، ثُمَّ ابْتَلَاهُ بِمَا نَهَاهُ عَنْهُ مِنْهَا، ثُمَّ سَلَّطَ عَلَيْهِ عَدُوَّهُ فَأَغْوَاهُ عَلَيْهَا، وَجَعَلَ أَكْلَهُ لَهَا إِلَى الْأَرْضِ سَبَبًا، فَمَا وَجَدَ إِلَى تَرْكِ أَكْلِهَا سَبِيلاً، وَلَا عَنْهُ لَهَا مَذْهَبًا.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

.....

[أعمال أهل الجنة والنار]

٦ - ثُمَّ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَهْلًا؛ فَهُمْ بِأَعْمَالِهَا بِمَشِيئَتِهِ عَامِلُونَ، وَبِقُدْرَتِهِ وَبِإِرَادَتِهِ يَنْفُذُونَ.

وَخَلَقَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ لِلنَّارِ أَهْلًا؛ فَخَلَقَ لَهُمْ أَعْيُنًا لَا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَآذَانًا لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، وَقُلُوبًا لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، فَهُمْ بِذَلِكَ عَنِ الْهُدَى مَحْجُوبُونَ، وَبِأَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ بِسَابِقِ قَدَرِهِ يَعْمَلُونَ.

[الإيمان]

٧ - وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَهُمَا سِيَانِ وَنِظَامَانِ وَقَرِينَانِ، لَا نُفرِّق بَيْنَهُمَا، لَا إِيمَانَ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا عَمَلَ إِلَّا بِإِيمَانٍ.

وَالْمُؤْمِنُونَ فِي الْإِيمَانِ يَتَفَاضَلُونَ، وَبِصَالِحِ الْأَعْمَالِ هُمْ مُتَزَايِدُونَ، وَلَا يَخْرُجُونَ بِالذُّنُوبِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَا يَكْفُرُونَ بِرُكُوبِ مَعْصِيَةٍ وَلَا عِصْيَانٍ، وَلَا نُوجِبُ لِمُحْسِنِهُمُ الْجِنَانَ بَعْدَ مَنْ أَوْجَبَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا نَشْهَدُ عَلَى مُسِيئِهِمْ بِالنَّارِ.

[القرآن]

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

٨ - وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمِنْ لَدُنْهُ، وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ فَيَبِيدُ.

.....

.....

.....

.....

.....

.....

[الصفات]

٩ - وَكَلِمَاتُ اللهِ، وَقُدْرَةُ اللهِ، وَنَعْتُهُ وَصِفَاتُهُ، كَامِلَاتٌ غَيْرُ مَخْلُوقَاتٍ، دَائِمَاتٌ أَزَلِيَّاتٌ، وَلَيْسَتْ بِمُحْدَثَاتٍ فَتَبِيدُ، وَلَا كَانَ رَبُّنَا نَاقِصًا فَيَزِيدُ.

جَلَّتْ صِفَاتُه عَنْ شِبْهِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَقَصُرَتْ عَنْهُ فِطَنُ الْوَاصِفِينَ، قَرِيبٌ بِالإِجَابَةِ عِنْدَ السُّؤَالِ، بَعِيدٌ بِالتَّعَزُّزِ لَا يُنَالُ، عَالٍ عَلَى عَرْشِهِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، مَوْجُودٌ وَلَيْسَ بِمَعْدُومٍ وَلَا بِمَفْقُودٍ.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[الآجال]

١٠ - وَالْخَلْقُ يَمُوتُونَ بِآجَالِهِمْ، عِنْدَ نَفَادِ أَرْزَاقِهِمْ، وَانْقِطَاعِ آثَارِهِمْ.

[القبر]

١١- ثُمَّ هُمْ بَعْدَ الضَّغْطَةِ فِي الْقُبُورِ مُسَاءَلُونَ.

[النشور والحساب]

١٢- وَبَعْدَ الْبِلَى مَنْشُورُونَ، وَيَومَ الْقِيَامَةِ إِلَى رَبِّهِمْ مَحْشُورُونَ، وَلَدَى الْعَرْضِ عَلَيْهِ مُحَاسَبُونَ، بِحَضْرَةِ الْمَوَازِينَ، وَنَشْرِ صُحُفِ الدَّوَاوِينَ، أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ، ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤] لَوْ كَانَ غَيْرُ اللهِ ﷻ الْحَاكِمَ بَيْنَ خَلْقِهِ؛ لَكِنَّهُ اللهُ يَلِي الْحُكْمَ بَيْنَهُمْ بِعَدْلِهِ بِمِقْدَارِ الْقَائِلَةِ فِي الدُّنْيَا، ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢] ، كَمَا بَدَأَهُ لَهُمْ مِنْ شَقَاوَةٍ وَسَعَادَةٍ يَوْمَئِذٍ يَعُودُونَ، ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧] .

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

[الجنة والنار]

١٣- وَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ فِي الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ، وَبِصُنُوفِ اللَّذَّاتِ يَتَلَذَّذُونَ، وَبِأَفْضَلِ الْكَرَامَةِ يُخْبَرُونَ.

١٤- فَهُمْ حِينَئِذٍ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْظُرُونَ، لَا يُمَارُونَ فِي النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا يَشُكُّونَ، فَوُجُوهُهُمْ بِكَرَامَتِهِ نَاضِرَةٌ، وَأَعْيُنُهُمْ بِفَضْلِهِ إِلَيْهِ نَاظِرَةٌ، فِي نَعِيمٍ دَائِمٍ مُقِيمٍ، ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨] ، ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥] .

وَأَهْلُ الْجَحْدِ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ مَحْجُوبُونَ، وَفِي النَّارِ يُسْجَرُونَ، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠] ، ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ الْآيَةُ [فاطر: ٣٦] ، خَلَا مَنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ إِخْرَاجَهُمْ مِنْهَا.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[طاعة الأئمة والأمراء ومنع الخروج عليهم]

١٥- وَالطَّاعَةُ لِأُولِي الْأَمْرِ فِيمَا كَانَ عِنْدَ اللهِ ﷻ مَرْضِيًّا، وَاجْتِنَابِ مَا كَانَ عِنْدَ اللهِ مُسْخِطًا.

وَتَرْكُ الْخُرُوجِ عِنْدَ تَعَدِّيهِمْ وَجَوْرِهِمْ، وَالتَّوْبَةُ إِلَى اللهِ ﷻ ؛ كَيْمَا يَعْطِفُ بِهِمْ عَلَى رَعِيَّتِهِمْ.

[الإمساك عن تكفير أهل القبلة]

١٦- وَالْإِمْسَاكُ عَنْ تَكْفِيرِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهُمْ فِيمَا أَحْدَثُوا، مَا لَمْ يَبْتَدِعُوا ضَلَالًا، فَمَنِ ابْتَدَعَ مِنْهُمْ ضَلَالًا كَانَ عَلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ خَارِجًا، وَمِنَ الدِّينِ مَارِقًا، وَيُتَقَرَّبُ إِلَى اللهِ ﷻ بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ، وَيُهْجَرُ وَيُحْتَقَرُ، وَتُجْتَنَبُ غُدَّتُهُ؛ فَهِيَ أَعْدَى مِنْ غُدَّةِ الْجَرَبِ.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[الصحابة رضي الله عنهم]

١٧- وَيُقَالُ بِفَضْلِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَخْيَرُهَمْ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، وَنُثَنِّي بَعْدَهُ بِالْفَارُوقِ، وَهُوَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ؛ فَهُمَا وَزِيرَا رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، وَضَجِيعَاهُ فِي قَبْرِهِ، وَنُثَلِّثُ بِذِي النُّورَيْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، ثُمَّ بِذِي الْفَضْلِ وَالتُّقَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

ثُمَّ الْبَاقِينَ مِنَ الْعَشَرَةِ الَّذِينَ أَوْجَبَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الْجَنَّةَ، وَنُخْلِصُ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مِنَ الْمَحَبَّةِ بِقَدْرِ الَّذِي أَوْجَبَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنَ التَّفْضِيلِ، ثُمَّ لِسَائِرِ أَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَيُقَالُ بِفَضْلِهِمْ، وَيُذْكَرُونَ بِمَحَاسِنِ أَفْعَالِهِمْ، وَنُمْسِكُ عَنِ الْخَوْضِ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ؛ فَهُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ، ارْتَضَاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِنَبِيِّهِ، وَجَعَلَهُمْ أَنْصَارًا لِدِينِهِ؛ فَهُمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ، وَأَعْلَامُ الْمُسْلِمِينَ، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[الصلاة وراء الأئمة والجهاد معهم]

١٨- وَلَا نَتْرُكُ حُضُورَ الْجُمُعَةِ، وَصَلَاةٌ مَعَ بَرِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَفَاجِرِهَا لَازِمٌ، مَا كَانَ مِنَ الْبِدَعَةِ بَرِيئًا، فَإِنِ ابْتَدَعَ ضَلَالًا فَلَا صَلَاةَ خَلْفَهُ، وَالْجِهَادُ مَعَ كُلِّ إِمَامٍ عَدْلٍ أَوْ جَائِرٍ، وَالْحَجُّ.

[قصر الصلاة والاختيار بين الصيام والإفطار في الأسفار]

١٩ - وَإِقْصَارُ الصَّلَاةِ فِي الْأَسْفَارِ، وَالتَّخْيِيرُ فِيهِ بَيْنَ الصِّيَامِ وَالإِفْطَارِ فِي الْأَسْفَارِ، إِنْ شَاءَ صَامَ، وَإِنْ شَاءَ أَفْطَرَ.

جامع عقبة بن غزوان رضي الله عنه

[اجتماع أئمة الهدى الماضين على هذه المقالات]

٣٠ - هَذِهِ مَقَالَاتٌ وَأَفْعَالٌ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا الْمَاضُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى، وَبِتَوْفِيقِ اللهِ اعْتَصَمَ بِهَا التَّابِعُونَ قُدْوَةً وَرِضًا، وَجَانَبُوا التَّكَلُّفَ فِيمَا كُفُوا، فَسُدِّدُوا - بِعَونِ اللهِ - وَوُفِّقُوا، لَمْ يَرْغَبُوا عَنْ الاتِّبَاعِ فَيُقَصِّرُوا، وَلَمْ يُجَاوِزُوهُ تَزَيُّدًا فَيَعْتَدُوا، فَنَحْنُ بِاللَّهِ وَاثِقُونَ، وَعَلَيْهِ مُتَوَكِّلُونَ، وَإِلَيْهِ فِي اتِّبَاعِ آثَارِهِمْ رَاغِبُونَ.

جامع عنبة بن غزوان رضي الله عنه

[المحافظة على أداء الفرائض والرواتب واجتناب المحرمات]

٢١ - فَهَذَا «شَرْحُ السُّنَّةِ» ، تَحَرَّيْتُ كَشْفَهَا، وَأَوْضَحْتُهَا؛ فَمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ لِلْقِيَامِ بِمَا أَبَنْتُهُ مَعَ مَعُونَتِهِ لَهُ بِالْقِيَامِ عَلَى أَدَاءِ فَرَائِضِهِ بِالْاحْتِيَاطِ فِي النَّجَاسَاتِ، وِإِسْبَاغِ الطَّهَارَاتِ عَلَى الطَّاعَاتِ، وَأَدَاءِ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْاسْتِطَاعَاتِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ عَلَى أَهْلِ الجِدَاتِ، وَالْحَجِّ عَلَى أَهْلِ الْجَدَةِ وَالْاسْتِطَاعَاتِ، وَصِيَامِ الشَّهْرِ لِأَهْلِ الصِّحَّاتِ، وَخَمْسُ صَلَوَاتٍ سَنَّهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : صَلَاةُ الْوِتْرِ كُلُّ لَيْلَةٍ، وَرَكْعَتَا الْفَجْرِ، وَصَلَاةُ الْفِطْرِ وَالنَّحْرِ، وَصَلَاةُ كُسُوفِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا نَزَلَ، وَصَلَاةُ الْاسْتِسْقَاءِ مَتَى وَجَبَ.

٢٢ - وَاجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ، وَالْاحْتِرَازُ مِنَ النَّمِيمَةِ، وَالْكَذِبِ، وَالْغِيبَةِ، وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأَنْ يُقَالَ عَلَى اللهِ مَا لَا يُعْلَمْ، كُلُّ هَذِهِ كَبَائِرُ مُحَرَّمَاتٌ.

وَالتَّحَرِّي فِي الْمَكَاسِبِ، وَالْمَطَاعِمِ، وَالْمَحَارِمِ، وَالْمَشَارِبِ، وَالْمَلَابِسِ، وَاجْتِنَابِ الشَّهَوَاتِ؛ فَإِنَّهَا دَاعِيَةٌ لِرُكُوبِ الْمُحَرَّمَاتِ؛ فَمَنْ رَعَى حَوْلَ الْحِمَى فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِي الْحِمَى.

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

[خاتمة الرسالة]

فَمَنْ يُسِّرَ لِهَذَا فَإِنَّهُ مِنَ الدِّينِ عَلَى هُدَى، وَمِنَ الرَّحْمَةِ عَلَى رَجَاءٍ.

وَوَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ إِلَى سَبِيلِهِ الْأَقْوَمَ، بِمَنِّهِ الْجَزِيلِ الْأَقْدَمِ، وَجَلَالِهِ الْعَلِيِّ الْأَكْرَمِ.

وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ قَرَأَ عَلَيْنَا السَّلَامَ، وَلَا يَنَالُ سَلَامُ اللهِ الضَّالِّينَ.

وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

نَجِزَتْ الرِّسَالَةُ بِحَمْدِ اللهِ وَمَنِّهِ،

وَصَلَوَاتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

تم بحمد الله

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

جامع عتبة بن غزوان رضي الله عنه

مَـــنْ حَـــازَ العِلْـــمَ وذَاكَـــرَهُ	صَـــــلُحَتْ دُنْيـــاهُ وآخِرَتُـــهْ
فـــأَدِمْ للعِلْـــمِ مُـــذَاكَرَةً	فحيـــاةُ العِلْـــمِ مُذَاكَرَتُـــهْ

(وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي تَتِمُّ بِنِعْمَتِهِ الصَّالِحَاتُ)

(الدَّوْرَةُ العِلْمِيَّة الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ ١٤٣٧هـ)

(مَسْجِد الصَّحابِي الجَلِيل عُتْبَة بْن غَزْوَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)

مَدِينَة الدَّمَام – المنْطِقَة الشَّرْقِيَّة

الدورة العلمية الرابعة عشرة
بجامع عتبة بن غزوان
رضي الله عنه
والتي تبدأ يوم الاربعاء ١٥ شوال ١٤٣٧هـ
بعد الفجر
شرح
الرسالة التدمرية
لشيخ الاسلام ابن تيمية
فضيلة الشيخ
عايد بن خليف الشمري
بعد الظهر
فضيلة الشيخ الدكتور
محمد بن هادي المدخلي
بعد العصر
شرح
نور البصائر والألباب
للشيخ عبد الرحمن السعدي
فضيلة الشيخ
فؤاد بن سعود العمري
بعد المغرب
شرح
كتاب كشف الكربة في وصف حال
أهل الغربة لابن رجب الحنبلي
فضيلة الشيخ الدكتور
محمد بن هادي المدخلي
بعد العشاء
شرح
كتاب شرح السنة
للامام إسماعيل بن يحيى المزني
فضيلة الشيخ
محمد بن رمزان الهاجري
تنقل فعاليات الدورة مباشرة عبر إذاعة جامع عتبة بن غزوان http://utbah.athaar.org/live
كما تنقل عبر إذاعة موقع ميراث الأنبياء www.miraath.net
يوجد مكان خاص للنساء